الموقف والحشر

اليوم الثقيل الطويل العبوس القمطرير!! وما بعد القبر أعظمُ منه.. إنه البعث والنشور.. إنه اليوم الثقيل الطويل العبوس القمطرير!! إنه يوم واحد ولكنه خمسون ألف سنة من أيام الدنيا طولاً.. يومٌ لا تغرب شمسُهُ إلا بعد مُضيّ خمسين ألف سنة، يوم يقومُ الناسُ فيه لربّ العالمين في رَشْحهم وعَرَقهم إلى أنصاف آذانهم: فمنهم مَن يأخذه عرقهُ إلى كَعْبَيْه، ومنهم مَن يأخذُه عَرَقه إلى رُكْبَتيه، ومنهم مَنْ يأخذه عرقُه إلى ثَدْيَيْه، ومنهم مَنْ يلجمه عرقه، ومنهم مَنْ يغُطُّ في عرقه غَطيطاً.

وقد حذَّرَ اللهُ جميعَ عباده منه، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١، ٢].

وأمر رسوله ﷺ أنْ يقومَ بالليل استعداداً وحَذراً لهذا اليوم. قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ۝ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٦، ٢٧].

وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ۝ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ [المزمل: ١٧، ١٨].

وقال تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [المعارج: ١، ٥].

وقال تعالى بعد ذكره لمصارع الغابرين: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣].

وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

وقد وصف النبي ﷺ من أحوال هذا اليوم وطُوله، وتهاويله وآلامه، ومشاهده ما يخلع القلب، ويُدمعُ العين، ويحمل على التفكير فيه وحده، والانصراف عن كل شيء دونه.

فمن ذلك قوله ﷺ: "تدنو الشمسُ يومَ القيامة من الخَلْق حتى تكون منهم كمقدار ميل، فيكون الناسُ على قَدْرِ أعمالهم في العرق، فمنهم مَنْ يكون إلى كَعْبَيْه، ومنهم مَنْ يكونُ إلى رُكْبَتَيْه، ومنهم مَنْ يكونُ إلى حِقْوَيْه، ومنهم مَن يلجمه العرقُ إلجاماً"، قال: وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فِيهِ. [رواه مسلم].

ففي هذا اليوم العصيب، يرى كلُّ حميم حميمَهُ فيَفِرُّ منه، ويشتغل بنفسه عنه، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴾ [المعارج: ١٠]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس: ٣٤ـ ٣٧].

في هذا اليوم يكون الكافر في عذاب هائل من الخوف والقلق، واليأس من رحمة الله، وانتظار العذاب المحقَّق في النار، ويصبح وجهُهُ كالليل سواداً وظلمةً، ممَّا هو فيه من الكَرْب العظيم.

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ [يونس: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ۝ يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ۝ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾ [طه: ١٠٢ـ ١٠٤].

وأما أهل الإيمان فهُم في أرض المحشر درجات في حصول الشدّة والكَرْب، والهَمّ والغَمّ، وكلُّ واحد منهم فيما هو فيه حَسْب إيمانه، وعمله الصالح، وحَسْب ما ارتكب كلّ من السيئات.

مانعُ الزَّكاةِ يُعذَّبُ خمسينَ ألف سنةٍ

ومن أهل الإيمان ممَّن له معَاصٍ، لم يشإ اللهُ أنْ يغفرها له، يُعَذَّب في أرض المحشر على هذه المعاصي (خمسين ألف سنة)، حتى يُقْضى بين الخلائق، عياذاً بالله من سَخَطه وعِقابه.

فمن ذلك، مانع الزكاة: فقد قال رسول الله ﷺ: «ما من صاحب كنز لا يُؤدِّي حَقَّه، إلا جُعِلَ صفائحَ يُحْمى عليها في نار جهنم، فتُكوى بها جبهته وجنبه وظهره، حتى يحكمَ اللهُ عزَّ وجلَّ بين عباده، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تَعُدُّون»، [رواه الإمام أحمد].

قيل: يا رسول الله، فالبقر والغنم؟ قال: «ولا صاحب بقر ولا غنم، لا يؤدي منها حَقَّها إلا إذا كان يوم القيامة، بُطِحَ لها بقاع قَرْقَر، لا يفقد منها شيئاً، ليس فيها عَقْصاء، ولا جلحاء، ولا عضباء، تنطحه بقرونها، وتطؤه بأظلافها، كلما

مرّ عليه أولاها ردّ عليه أخراها، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يُقْضَى بين العباد، فيرى سبيله، إما إلى الجنة، وإما إلى النار».

قيل: يا رسولَ اللّه، فالخيلُ؟

قال: «الخيل ثلاثة: هي لرجل وِزْرٌ، وهي لرجل سِتْرٌ، وهي لرجل أجرٌ».

فأما التي هي له وزرٌ: فرجلٌ ربطها رياء وفخراً ونواءً على أهل الإسلام، فهي له وِزْرٌ.

وأما التي هي له سِتْرٌ، فرجلٌ ربطها في سبيل اللّه، ثم لم يَنْسَ حَقَّ اللّه في ظهورها، ولا رقابها، فهي له سِتْرٌ.

وأما التي هي له أجرٌ، فرجل ربطها في سبيل اللّه لأهل الإسلام في مَرْج، أو رَوضة، فما أكلتْ من ذلك المَرْج أو الروضة من شيء إلا كُتِبَ له عدد ما أكلتْ حسنات، وكُتِبَ له عددُ أرْوَاثِها وأبْوَالِها حسنات، ولا تقطع طولها فاستنّت شرفاً أو شرفين إلا كتبَ اللّهُ له عددَ آثارها، وأرواثها حسنات، ولا مرّ بها صاحبها على نهر، فشربتْ منه، ولا يريد أنْ يسقيها إلا كتبَ اللّهُ له عددَ ما شربتْ حسناتٍ».

قيل: يا رسولَ اللّه، فالحُمُر؟

قال: «ما أُنزِلَ عليَّ في الحُمُر شيءٌ إلا هذه الآية الفَاذَّة الجامعة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، [رواه مسلم].

وتصديق هذا الحديث في كتاب اللّه تعالى قوله جلّ وعلا:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥].

مُؤمِنُونَ في ظِلِّ اللّهِ يَوْمَ القِيَامَةِ

ومن أهل الإيمان مَنْ يكونون في ظل اللّه، قد خَصّهم اللّهُ بهذه الكرامة لاختصاصهم بأعمال عظيمة. قال تعالى:

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۝ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ

لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ۝ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ۝ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴾ [الإنسان: ٦ـ ١٥].

وقال رسول الله ﷺ:

«سبعةٌ يُظِلُّهُم اللّهُ في ظِلِّه، يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّه: إمامٌ عادلٌ. وشابٌ نشأ في عبادة اللّهِ عزّ وجلّ. ورجلٌ قلبُهُ مُعلّقٌ بالمساجد. ورجلان تَحابّا في اللّهِ اجتمعا عليه، وتفرّقا عليه. ورجلٌ دَعتْهُ امرأةٌ ذات حُسْن وجمال، فقال: إني أخافُ اللّهَ. ورجلٌ تصدّق بصدقة، فأخفاها حتّى لا تعلمَ شماله ما تنفقُ يمينه. ورجلٌ ذكرَ اللّهَ خالياً ففاضتْ عيناه»، [متفق عليه].

المرورُ على الصّراطِ هو الكَرْبُ الأعظمُ لأهلِ الإيمان!! السّابقون يَجُوزونَ، وَالعُصَاة يسقطون

أعسرُ مراحل يوم القيامة، وأصعبُ أوقاته، هو العبور فوق جهنم من أرض المحشر إلى قنطرة أخرى قبل الجنة... إنه عبور فوق النار كلها. وما أعرضَ هذه النار؟! وما أعظمَ اتساعها، ولو قرّبنا المعنى لَقُلْنا: إنه عبورٌ فوق الشمس!! بل الشمس كوكب صغير في النار!!.

فهل فكرتَ يا عبدَ اللّه في أنه يتوجّب عليك أنْ تعبرَ فوق ما يشبه الشمسَ حَرًّا وناراً، واتساعاً، بل الشمس الذي ينفجر بركانها، وتصل حرارةُ سطحِها إلى مليوني درجة، جزءٌ صغير من نار الآخرة.

فإذا تصوّرنا النارَ كما صوّرها اللّهُ لنا في القرآن، وكما أخبر عنها رسوله ﷺ في أحاديثه الكثيرة، وعلمنا أنها بئرٌ عميقة قد بَعُدَ قرارُها بُعْداً لا تستوعبه عقولنا، إلا أنْ نقيسَ ذلك بالبُعْد بين الكواكب في هذا الكون الفسيح، وأنها في التهاب الشمس بل أعظمُ، وإنها واسعةٌ بحيث تكون الشمس هذه ذاتها، والقمر هذا ذاته الذي نراه، حجرين صغيرين في صحراء واسعة.

قال ﷺ: «الشمس والقمر مُكَوَّرانِ في النارِ يومَ القيامةِ»، [رواه البخاري].

وإذا كان أهل الإيمان يَكْرَبُون في الموقف العظيم والمشهد الهائل والقيام لربّ العالمين، وكَرْبُ كُلِّ واحد منهم على قَدْر ذُنوبه ومعاصيه، ومن أهل الإيمان مَنْ يُفتن في قبره، ويُعذَّبُ حتى يُنفخَ الصُّور. ومنهم مَنْ يُعذَّب بالنار في مَحْشَره في هذا اليوم الطويل العصيب، حتى يقضيَ اللّه بين الخلائق.

فإن ثمة ما هو أعظم لهم جميعاً، وأكبر فتنة وهَوْلاً، وهو المرورُ على الصراط والجواز منه إلى الجنة.. فإما عبورٌ وسلامة، وإما معاناةٌ طويلة طويلة، وإما هوى في نار جهنم إلى غاية لا يعلمها إلا اللّهُ وحده، حتى تدركهم الشفاعةُ ورحمةُ اللّه في نهاية المطاف.

قال ﷺ: «ويُضرَبُ الصراطُ بين ظَهْرَيْ جهنمَ، فأكونُ أنا وأُمّتي أولَ مَنْ يُجيز، ولا يتكلم يومئذٍ إلا الرسلُ، ودعوى الرسل يومئذٍ: اللّهم سَلِّم سَلِّم. وفي جهنمَ كلاليبُ مثل شَوْك السعدان، هل رأيتُم السعدان؟» قالوا: نعم يا رسولَ اللّه. قال: «فإنها مثلُ شَوْك السعدان، غير أنه لا يعلمُ ما قَدْرُ عظمها إلا اللّه، تخطفُ الناسَ بأعمالهم، فمنهم المؤمن بَقِيَ بعمله، ومنهم المُجَازَى حتى يُنَجّى»، [رواه مسلم].

وقال ﷺ: «ثم يُضرَبُ بالجسر على جهنم وتحلُّ الشفاعةُ، ويقولون: اللّهم سلِّم سلِّم»، قيل: يا رسولَ اللّه، وما الجسر؟ قال: «دَحْضٌ مَزِلَّة، فيه خطاطيفُ وكلاليبُ وحَسَكٌ، تكون بنَجْد فيها شُوَيْكَة يُقالُ لها السعدان، فيمرّ المؤمنون كطَرْف العين، وكالبرق، وكالريح، وكالطير، وكأجاويد الخيل والركاب.. فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، ومَخدوش مرسل، ومكدوس في نار جهنم. حتى إذا خلص المؤمنون من النار، فوالذي نفسي بيده! ما منكم من أحد بأشدَّ مناشدةً للّه في استقصاء الحق، من المؤمنين للّه يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار.

يقولون: رَبَّنا كانوا يصومون معنا ويُصَلُّون ويحجُّون!! فيُقال لهم: أخرجوا مَنْ عرفتم!! فَتُحَرَّم صورهم على النار. فَيُخرِجُون خَلْقاً كثيراً قد أخذت النار إلى نصف ساقيه، وإلى رُكْبتيه ثم يقولون: ربَّنا ما بقي فيها أحدٌ ممَّنْ أمرتنا به. فيقول: ارجعوا، فمَنْ وجدتم في قلبه مثقالَ دينار من خير فأخرجوه، فَيُخرِجون خَلْقاً كثيراً، ثم يقولون: ربَّنا لم نذرْ فيها أحداً ممَّنْ أمرتنا، ثم يقول: ارجعوا. فَمَنْ وجدتم في قلبه مثقالَ ذرة من خير فأخرجوه، فَيُخرجون خَلْقاً كثيراً. ثم يقولون: ربَّنا.. لم نذرْ فيها خيراً».

وكان أبو سعيد الخدري يقول: إنْ لم تُصدِّقوني بهذا الحديث فاقرءوا إنْ شئتم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

«فيقول اللّه عزّ وجلّ: شفعتْ الملائكةُ وشفعَ النبيون، وشفعَ المؤمنون، ولم يَبْقَ إلا أرحمُ الراحمين، فيقبض قبضةً من النار فيُخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً

قط، قد عادوا حُمَماً، فيُلقيهم في نهر في أفواه الجنة يُقال له نهر الحياة، فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل السيل. ألا ترونها تكون إلى الحجر أو إلى الشجر، ما يكون إلى الشمس أصيفر وأخيضر، وما يكون منها إلى الظل يكون أبيض؟».

فقالوا: يا رسول الله! كأنك كنتَ ترعى بالبادية.

قال: «فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتم، يعرفهم أهل الجنة. هؤلاء عُتقاء الله الذين أدخلهم اللهُ الجنةَ بغير عمل عملوه، ولا خير قدَّموه. ثم يقول: ادخلوا الجنةَ فما رأيتموه فهو لكم، فيقولون: ربَّنا أعطيتنا ما لم تُعْطِ أحداً من العالمين، فيقول: لكم عندي أفضل من هذا، فيقولون: يا ربِّنا.. أيّ شيء أفضل من هذا؟ فيقول: رضاي، فلا أسخط عليكم بعده أبداً»، [رواه مسلم].

ويبقى مَنْ حبسه القرآنُ. فمَنْ هم؟

الذِينَ حَبَسَهُمُ القُرْآنُ

هُمُ الذين أخبر اللهُ عنهم، أنهم مُخَلَّدُونَ في النار.

أولهم: الكفار المشركون، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦]، وقال تعالى عنهم: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، والآيات في خلود الكفار في النار خلوداً لا انقطاعَ فيه كثيرة جداً.

وقال ﷺ: «اعلموا أنه لا يدخل الجنة إلا نفسٌ مسلمةٌ»، [رواه مسلم].

ثانيهم: ومن الذين حبسهم القرآنُ وقضى بخلودهم: قاتل النفس ظلماً الذي لم يَتُبْ من ذلك، قال جلّ وعلا: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

ثالثهم: آكل الربا الذي مات غير تائب منه. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

وهؤلاء لا يحكم فيهم إلا ربُّ العالمين، ولا يخرجون من النار إلا بإذن أحكم الحاكمين. وكم يستمر خلودهم في النار حتى تتداركهم الرحمة، هذا علمه إلى الله سبحانه وتعالى وحده، ولا شكَّ أن خلودَ هؤلاء العصاة ليس كخلود الكفار، ولكنه بقاءٌ طويلٌ، لأن هذا هو معنى الخلود.

السُّقُوطُ عَنِ الصِّرَاطِ

قدَّر اللّهُ على كل عبد من عباد الله أنْ لا يدخلَ الجنة إلا أنْ يجاوزَ النار عبوراً فوق الصراط. قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١، ٧٢].

والصراط ما قد علمتَ جسرٌ طويلٌ فوق جهنم، ويوم يُضرَبُ الجسرُ على جهنم ستقوم الأمانة في جانب، وتقوم الرحمُ في الجانب الآخر إيذاناً وإعلاناً أن مَنْ أدَّى الأمانةَ ووَصَلَ الرحمَ نَجَا، ووصل الجنة، وأما مَنْ خانَ الأمانةَ أو قطع الرحم خانتْهُ رِجْلاهُ فسقط، وانقطع أنْ يصلَ الجنة، وهذا الذي سقط في النار، كم سيبقى في النار حتى تدركه الرحمة؟! إنْ بقي يوماً واحداً فقد بقي ألفَ سنة، وإنْ بقي نصفَ يوم فخمسمائة عام.

قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧].

لحظةٌ واحدةٌ في النَّارِ تُنْسي المعذَّبَ كلَّ نعيمٍ رآهُ

وإن لحظة واحدة في النار، بل غمسة واحدة تُنسيكَ كُلَّ نعيم تنعَّمْتَ به في الأرض. قال نبي الله ﷺ: «يُؤتَى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيُصبَغُ في جهنم صبغةً، ثم يُقالُ له: يابن آدم، هل رأيتَ خيراً قطّ؟ هل مرَّ بك نعيم قطّ؟ فيقول: لا واللّه يا ربّ، ويُؤتَى بأشدّ الناس بُؤْساً في الدنيا من أهل الجنة، فيُصبَغُ في الجنة صبغة، فيُقالُ له: يابن آدم! هل رأيتَ بُؤْساً قطّ؟ هل مرَّ بك شدةٌ قطّ؟ فيقول: لا واللّه يا ربّ. ما مرَّ بي بُؤسٌ قطّ، ولا رأيتُ شدةً قطّ».

وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللّهِ مَا لم يكونُوا يحْتَسِبُونَ

قُل للذين يُمَنُّونَ أنفسهم، وينظرون إلى معاصيهم، كأنها ذبابٌ وقع على أنف أحدهم، وأنه لو أشار إليه لَذَبَّه وطرده.. هل سمعتَ بقول النبي ﷺ: «وقُمْتُ على باب النار، فإذا عامة من دخلها النساء»، [رواه مسلم].

وقوله ﷺ: «يا معشرَ النساء، تصدَّقْنَ فإني رأيتكُنَّ أكثرَ أهل النار». فقُلْنَ: وبِمَ يا رسول اللّه؟ قال: «تُكْثِرْنَ اللعنَ، وتَكفُرْنَ العَشير، وما رأيتُ من ناقصات عقل ودين أذهبَ لِلُبِّ الرجل الحازم من إحداكنّ». قُلْنَ: وما نقصانُ ديننا وعقلنا يا رسول اللّه؟

قال ﷺ: «أليس شهادةُ المرأة مثلَ نصف شهادة الرجل؟» قُلْنَ: بلى. قال:

«فذلك من نُقصان عقلها، أليس إذا حاضتْ لم تُصَلِّ ولم تَصُمْ؟». قُلْنَ: بلى. قال: «فذلك من نقصان دينها»، [رواه البخاري].

أليس إكثار اللعن من صغار الذنوب، وأليس كفرانُ نعمة الزوج أنْ تقولَ: ما رأيتُ منك خيراً قطّ!! وأليس كَوْنُ المرأة تستطيع أنْ تُميلَ الرجلَ الحازم وتفتنه أن يقوم بواجب، أو أنْ يفعلَ محرَّماً كذلك.. فإذا كانت النساءُ يدخُلْنَ النار في مثل هذه المعاصي.. ولا تدرك رحمةُ اللّه مَنْ تلبَّستْ بمثل هذه المعاصي إلا بعد دخول النار، فهل يأمن أحدٌ بعد ذلك أنْ يُؤاخذه اللّهُ بالذنب. فإن المرأة في أساس الخَلْق أقلُّ من الرجل عقلاً وحكمة، تُعذَّب في النار بمثل هذه الذنوب.

فكيفَ بمنْ يرتكب الكبائر ولا يتوب، ومَنْ يفعل ما يظنه من الصغائر ولا يرعوي!! ومَنْ يظن أنه ناجٍ من أول وهلة بتصديق القلب فقط دون إسلام الجوارح وإيمان القلب.

بعد تلك الرحلة الشاقة العسيرة (عبور الجسر الصراط) وخلوصُ مَن خَلُصَ من النار من عُصَاة المؤمنين. تبقى المقاصّة بين المؤمنين، وتصفية ما بقي من حساب بعضهم على بعض.

فقد قال رسول اللّه ﷺ: «يخلص المؤمنون من النار، فيُحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتصّ لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقّوا أذنَ لهم في دخول الجنة، فوالذي نفسُ محمد بيده لأحدُهم أهدَى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا».

وهذا الحبس على هذه القنطرة بين النار والجنة قد يطول ببعض العصاة.. فكَمْ لكثير من أهل الإيمان حَقٌّ على إخوانه المؤمنين قد هضموه، وعِرْضٍ قد هتكوه، ومالٍ قد سلبوه، وكم يقع من الظلم بين المسلمين.

يقف المؤمنون على أبواب الجنة التي لم تُفتح بعد، ولا تُفتح حتى يأتي من أعلى اللّهُ منزلته في الدنيا والآخرة، ومَنْ جعله سيداً للناس أجمعين. وهل يدخل المؤمنون الجنةَ إلا أنْ يدخلَ سيدُهُم وإمامهم.

يأتي رسول اللّه محمد بن عبد اللّه، أكرم العباد على اللّه، فيكون أولَ مَنْ يطرق باب الجنة والناس ينظرون، والمؤمنون ينتظرون، وينادي رضوانُ خازنها من داخلها: «بك أُمِرْتُ لا أفتح لأحد قبلك» [رواه مسلم].

قال ﷺ: «أنا أولُ شفيع في الجنة» [رواه مسلم]، وقال: «أنا أولُ مَنْ يأخذ بحلق باب الجنة فأقعقعها» [رواه أحمد والترمذي وصححه شيخنا الألباني].

وتفتح الجنةُ أبوابها الثمانية، ما بين مصراعي الباب الواحد ما بين مكة وهَجَر (البحرين)، ولكل باب اسمٌ مخصوص، باسم عبادة من العبادات: باب الصلاة، وباب الزكاة، وباب الريّان (باب الصوم)، وباب الجهاد، وبابُ برّ الوالدين.

ويُصنّف أهلُ الإيمان بحسب درجاتهم في العبادة، وينادي الملائكةُ الذين اصطفوا على باب الجنة كلّ أهل باب ليدخلوا من بابهم.. وهناك مَنْ يُكرّم من أهل الإيمان فيُناديه ملائكةُ كل باب، لأنه كان من أهل هذه العبادات جميعاً، فقد كان من السابقين في كل أبواب الخير، بارّاً بوالديْه.

قال ﷺ: «الوالد أوسط أبواب الجنة»، [رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم]، سابقاً في الصلاة، وسابقاً في الصوم، وسابقاً في الزكاة.. ويدخل الفقراءُ أولاً!! ويُحْبَس أغنياءُ المؤمنين!! (يُحْبَسون نصفَ يوم.. خمسمائة عام).

قال ﷺ: «قُمْتُ على باب الجنة، فإذا عامّة مَنْ دخلها المساكينُ، وإذا أصحاب الجَدّ (أي: الحظ والنصيب الوافر في الدنيا) مَحْبُوسُون، إلا أصحاب النار، فقد أُمِرَ بهم إلى النار، وقُمْتُ على باب النار، فإذا عامّةُ مَنْ دخلها النساء»، [رواه أحمد والبخاري].

وقال ﷺ: «أبشروا يا فقراء المهاجرين.. تدخلون الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم»، [رواه البخاري].

وإذا دخل أهل الجنة الجنةَ، ذهب كُلٌّ إلى منزله دون مُرْشد أو قائد يقوده، أو مُعَرّف يُعرّفه منزله.. قال ﷺ: «فوالذي نفسي بيده، لأحدُهم أهْدَى بمنزله في الجنة، منه بمنزله كان في الدنيا»، [رواه البخاري].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: ٤ـ ٦].

وقد رأى النبي ﷺ النارَ رأْيَ العَيْن، فقال: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتُم قليلاً، ولَبكيتُم كثيراً»، [رواه البخاري].

وكان ﷺ إذا خطب عن الجنة والنار احمرّ وجهُهُ كثيراً، واشتدّ غضبُه وعَلا صوته، كأنه مُنذِرُ جيشٍ يقول: «صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ»، [رواه مسلم].

وكان ﷺ إذا سمع كلمةً يقولها صحابيٌّ من كلمات الطمأنينة والثقة بالجنة، لمن عُرِفَ صلاحه... يقول: «واللّه ما أدري ـ وأنا رسول اللّه ـ ما يُفعل بي»، [رواه البخاري].

ففي البخاري أن أمّ العلاء امرأة من نساء الأنصار بايعتْ النبي ﷺ أخبرته أن

عثمانَ بنَ مظعونٍ طَارَ لهم في السُّكْنَى حين افترعتْ الأنصار على سُكْنَى المهاجرين. قالت أم العلاء: فاشتكى عثمان عندنا، فمَرَّضْتُه حتى تُوفِّي، وجعلناه في أثوابه، فدخل علينا النبي ﷺ فقلتُ: رحمةُ اللهِ عليك أبا السائب!! شهادتي عليك: لقد أكرمك الله!!.

فقال النبي ﷺ: «وما يُدريك أنَّ اللهَ أكرمه؟» قلت: لا أدري.. بأبي وأمي. يا رسول الله. فمن؟ قال: «أما هو فقد جاءه واللهِ اليقينُ!! واللهِ إني لأرجو له الخيرَ، وما أدري واللهِ، وأنا رسولُ اللهِ ما يُفعَلُ بي؟!»، قالت: فواللهِ لا أزكي أحداً بعده!! قالتْ: فأحزنني ذلك فنِمْتُ، فرأيتُ لعثمانَ عيناً تجري، فجئتُ رسول اللهِ ﷺ وأخبرتُهُ. فقال: «ذلك عمله».

وأقول: فهل بعد ذلك يطمئن مؤمنٌ إلى عمله؟ وينام قرير العين، ولم يعلم منزله في الجنة أو في النار؟

فعلى مَنْ كانت لأخيه عنده مظلمةٌ من عَرَضٍ أو مال، فلْيتحلّله اليوم، قبل أنْ يُؤخَذَ منه يومٌ لا دينار ولا درهم، فإنْ كان له عملٌ صالحٌ، أخذ بقدر مَظْلَمَتِه وإنْ لم يكُنْ له عملٌ أُخِذَ من سيئات صاحبه، فَجُعِلتْ عليه»، [رواه البخاري].

اللّهمّ.. إنني أسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العُليا، ورحمتِكَ التي وسعتْ كلّ شيء، أسألُك بأنك أنت اللهُ رَبُّ العالمين، البَرُّ الرحيمُ الغفورُ الودودُ، ذو العرش الكريم، أنْ تتجاوز عن خطيئاتي، وأنْ تغفرَ لي ذنبي، وأنْ تجزيَ كلّ مؤمن صنع إحساناً بإحسانٍ من عندك، وأنْ تغفرَ لكلّ مَنْ أساءَ إليّ، أو ظلمني أيَّ مَظْلَمةٍ كانت.

اللّهمّ.. تقبّلْ عملي، إنك أنت السميعُ العليمُ.. رَبِّ أوزعني أنْ أشكرَ نعمتَك التي أنعمتَ عليَّ وعلى والديَّ، وأنْ أعملَ صالحاً ترضاه، وأصلحْ في ذريتي إنّي تُبْتُ إليك، وإنني من المسلمين.

اتّقاء النار

اتقوا الله تعالى، واتقوا غضبه، واتقوا عذابه وعقابه، فمن أعظم عقوبات الله وعذابه نارُ جهنم، أجارنا الله وإياكم منها، فاتقوا نار جهنم، اتقوها بكل ما تستطيعون، وبكل ما تملكون.

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

هل تعلمون ما هي النار؟ هي الدار التي أعدّها الله للكافرين، المتمردين على شرعه، المكذّبين لرسله، وهي عذابه الذي يُعذب به أعداءه، وسجنه الذي يسجن فيه المجرمين، هي الخزي الأكبر، والخسران العظيم، الذي لا خِزْيَ فوقه ولا خسرانَ أعظم منه.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [آل عمران: ١٩٢]. ﴿إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

ففي النار من العذاب والآلام والأحزان ما تعجز عن تسطيره الأقلامُ، وعن وصفه اللسانُ، إنها ساءت مستقراً ومقاماً، ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ * جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ [ص: ٥٥، ٥٦].

يقوم على النار ملائكةٌ، خَلْقُهُم عظيم، وبأسُهُم شديد، لا يعصون الله الذي خلقهم، ويفعلون ما يُؤمَرُون، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

وعددهم تسعة عشر مَلَكاً، كما قال تعالى: ﴿سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ * وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ * لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ * عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٢٦ـ ٣٠].

النار شاسعة واسعة، بعيد قَعْرُها، مترامية أطرافها، الذين يدخلونها أعداد لا تُحْصَى، يكون ضرسُ الواحد منهم في النار مثل جبل أُحُد، وما بين منكبيه مسيرة ثلاثة أيام.. ومع ذلك فإنها تستوعب هذه الأعداد الهائلة التي وُجِدَتْ على امتداد الحياة الدنيا من الكفرة والمجرمين، ويبقى فيها مُتسع لغيرهم.

روى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا تزال

جهنم يُلْقى فيها وتقول: هل من مزيد، حتى يضع ربُّ العزّة فيها قدمهُ، وينزوي بعضها إلى بعض، فتقول: قط قط، بعزتك وكرمك».

ومما يدلُّ على بُعْد قَعْرها أن الحجر كما أخبر الرسول ﷺ كما في صحيح مسلم، أنه يهوي سبعين سنة، حتى يصل إلى قَعْرها، يُؤتى بجهنم ولها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف مَلَك يجرُّونها، فعِظَم هذه النار احتاج لهذا العدد الهائل من الملائكة الأشداء الأقوياء، الذين لا يعلم مدى قوتهم إلا الله.

وللنار سبعة أبواب، وإنَّ جهنم لَمَوعدهم أجمعين، لكل باب منهم جزء مقسوم، قال ابن كثير: أي قد كُتب لكل باب منها جزء، من أتباع إبليس، يدخلونه لا محيد لهم عنه، أجارنا الله منها، وكلّ يدخل من بابٍ بحسب عمله، ويستقر في دَرَك بحسب عمله.

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].

ومن تأمل القرآن الكريم علم أن نار جهنم تتكلم وتبصر، قال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يخرج يوم القيامة عُنقٌ من النار، لها عينان تُبصران، وأذنان تسمعان، ولسان ينطق، تقول: إني وُكِّلْتُ بثلاثة: بكل جبار عنيد، وبكل مَنْ دعا مع الله إلهاً آخر، وبالمُصوِّرين»، [رواه الترمذي].

وقد جاءت نصوص الكتاب والسُّنَّة تقرر حقيقة خطيرة مهمة، إذا لم يحسب لها الإنسان حساباً دقيقاً، فقد يكون من الخاسرين، هذه الحقيقة هو أن الكثرة من بني آدم يدخل النار، والقلة تدخل الجنة.

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠].

وقال الحق تبارك وتعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥].

والسبب في ذلك اتباع الشهوات، ذلك أن حبَّ الشهوات مغروسٌ في أعماق النفس الإنسانية، وكثيرٌ من الناس يريد الوصول إلى هذه الشهوات، بالطريقة التي تهواها نفسه ويحبها قلبه، ولا يراعي في ذلك شرع الله.

يقول ﷺ: «حُفَّتْ النارُ بالشهوات، وحُفَّتْ الجنةُ بالمكاره». فاتقوا الله،

وخافوا على أنفسكم من النار، فلا تُعرّضوا أنفسكم لعذاب الله وسخطه، والسبب شهواتكم.

وقد توعد الحق سبحانه أصحابَ الذنوب والآثام بالعذاب في النار، من هذه الذنوب ما يؤدي بصاحبه للخلود في النار..

أولها: وفي مقدمتها: **الكفر والشرك** بالله جلّ وعلا، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩].

وقال جل وعلا: ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦].

وقال عن الشرك: ﴿مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

ومما توعد صاحبه بالنار **النفاق**، يقول سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ۖ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥]، ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٨].

ومن الذنوب الموجبة للنار **الكبر**، قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما أدخلته النار».

ومن الذنوب والكبائر التي توعد صاحبها بالنار، وهي بليّةُ هذا الزمان ومصيبتها العظمى **الربا**. قال الله تعالى في الذين يأكلونه بعد أن بلغهم تحريم الله له: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٠، ١٣١].

ومن الذنوب أيضاً: **أكل أموال الناس بالباطل**، قال تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۝ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ٢٩، ٣٠].

ومن الذنوب **منع الزكاة**، يقول الحق سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥].

ومما قد يُدخِل النار **الغفلة عن الآخرة**، والرضا والاطمئنان بالدنيا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٧، ٨].

ويقول تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥، ١٦].

ومما توعد صاحبه بالنار **الركون والميل إلى الظلمة**:

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

ومن الذنوب التي توعد صاحبه بالنار **الإجرام** بكل صوره وأشكاله، يقول الحق سبحانه: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ۝ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم: ٤٩، ٥٠]، ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَٰقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: ٥٣].

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ۝ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: ٤٧، ٤٨].

فليفكر كلُّ مجرم في حاله، وليتذكّر هذه الآيات، خصوصاً إذا كان إجرامه في حقّ غيره.

ومما يتوعد صاحبه بالنار، **استبدال نعمة الله بالكفر**، بل وإلزام القوم والناس بذلك، قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ۝ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ۝ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨ـ ٣٠].

ومما قد يُوجب النار **الفسق**، بكل أنواعه ودرجاته:

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ۝ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ١٨ـ ٢٠].

ومما تُوعَّد صاحبه بالنار **معصية الله ورسوله**، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣]، وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ١٤].

ومما تُوعَّدَ صاحبه بالنار ـ والعياذ بالله ـ **إضاعة الصلوات** وعدم الاهتمام بها، وهذا لا يكون إلا عن طريق اتباع الشهوات، ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيّٗا ﴾ [مريم: ٥٩].

ومن الذنوب التي يستحق فاعلها النار، الذي يقطع شجرة السدر، الذي يستظل به الناس، عن عبد الله بن حبيش قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قطعَ سدرة، صَوَّب اللهُ رأسَهُ في النار»، [رواه أبو داود].

وعن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ قال: «إن الذين يقطعون السدر يُصَبُّونَ في النار على رؤوسهم صَباً»، هذا الذي يقطع ظل شجرة ينتفع الناس بها، فكيف بالذي يقطع ظل الشريعة؟

ومن الأمور أيضاً المُتوعَّد صاحبها بأنْ يُعذَّب بسببها في نار جهنم، وهذا خاص بطلاب العلم، وهو **عدم الإخلاص في طلب العلم**.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تعلَّم علماً مما يُبتغى به وجْهُ الله لا يتعلمه إلا ليُصيب به عَرَضاً من الدنيا، لم يجد عَرْفَ الجنة يوم القيامة» ـ يعني ريحها، [رواه أبو داود والحاكم].

وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تعلّموا العلمَ لتُبَاهُوا به العلماء، ولا تُمَاروا به السفهاء، ولا تخيّروا به المجالس، مَنْ فعل ذلك فالنار النار»، [رواه ابن ماجه وابن حبان].

دركاتُ العَذَابِ في النَّارِ

فأهل النار ليسوا على درجة واحدة من العذاب، فهم يتفاوتون، وكُلٌّ بحسب ما قدّم من الأعمال. يقول عليه الصلاة والسلام، فيما رواه مسلم في صحيحه، فقال في أهل النار: «إن منهم مَنْ تأخذه النارُ إلى كَعْبَيْه، ومنهم مَنْ تأخذه إلى رُكْبَتيه، ومنهم مَنْ تأخذه إلى حُجزته، ومنهم مَنْ تأخذه إلى تُرْقُوته». فليس كلُّ أحد يُعذَّب كالآخر، وأيضاً فصُوَر العذاب تختلف.

فمن المعذَّبين في جهنم ـ أجارنا الله وإياكم منها ـ مَنْ يُحْرَق جلده، وكلما احترق بُدّل بجلد غيره ليحترقَ من جديد، وهكذا دواليك. : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴾ [النساء: ٥٦].

ومن الناس مَنْ يُصَبُّ الحميمُ فوق رأسه، والحميمُ هو ذلك الماء الذي انتهى

حَرُّه، فلشدة حَرِّه تذوب أمعاؤه، ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ [الحج: ١٩].

ومن الناس مَنْ يأتيه العذابُ عن طريق وجهه، وأكرم ما في الإنسان وجهه، لذلك نهانا الرسول ﷺ عن ضرب الوجه، ومن إهانة الله لأهل النار أنهم يُحْشَرون في يوم القيامة، على وجوههم عُمْياً وصُماً وبُكْماً، يقول الحق سبحانه: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

ويُلْقَوْنَ في النار على وجوههم، يقول تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠].

ثم إن النار تلفح وجوههم، وتغشاها أبداً، لا يجدون حائلاً يحول بينهم وبينها، يقول تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٩].

ويقول سبحانه: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ۝ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٤، ١٠٥].

ويقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠].

ويقول: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الزمر: ٢٤].

ولو تأمل العبد هذا المنظر الذي تقشعر لهوْله الأبدانُ، وهو قول الله عز وجل: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا﴾ [الأحزاب: ٦٦]، أرأيتم كيف يُقلَّبُ اللحمُ على النار، كذلك تُقلَّب وجوههم في النار، نعوذ بالله من عذاب أهل النار.

ومن الناس مَنْ يُسْحَب في النار، يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ۝ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: ٤٧، ٤٨].

والذي يُزيد في العذاب أنهم حال سحبهم في النار، يكونون مقيدين بالقيود والأغلال والسلاسل، يقول الحق سبحانه عن ذلك: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ۝ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧١، ٧٢].

ومن الناس من يَسْودُّ وجهه في النار، بفعله السيئات في الدنيا: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟

﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس: ٢٧].

والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨].

ومن عجائب كلمة ﴿ٱتَّقُوا۟﴾ أنها تأتي في أشياء يبدو أنها متناقضة، إنما هي ملتقية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ ولم يقل هنا: اتقوا النار كما قال في آية أخرى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤]. إذن: فكيف يقول: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ ويقول: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ﴾ [البقرة: ٢٤]؟ لأن معنى ﴿فَٱتَّقُوا۟﴾ أي: اجعلوا وقاية بينكم وبين ربكم.

كيف نجعل وقاية بيننا وبين ربنا مع أن المطلوب منا إيمانياً أن نلتحم بمنهج الله لنكون دائماً في معية الله؟ نقول: الله ـ سبحانه ـ له صفات جلال كـ: القهّار، والمنتقم، والجبار، وذي الطَّوْل، وشديد العقاب؛ فهو يطلب من عبده المؤمن أن يجعل بينه وبين صفات جلاله وقاية، فالنار جُنْدٌ من جنود صفات الجلال.

وحين يقول الحق سبحانه: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ يعني: اجعلوا وقاية بينكم وبين صفات الجلال التي من جنودها النار. إذن: فـ: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ مثل: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ﴾ أي: اجعلوا وقاية بينكم وبين النار.

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

الحق ـ سبحانه ـ يريد هنا أن يلفتنا إلى عجز هؤلاء الكفار، فهم بحثوا عن أعذار، ليبرروا بها عدم إيمانهم، وتظاهروا بأنهم يشكُون في القرآن الكريم.

يقول لهم: لو كانت لكم قدرة وذاتية فعلاً، فامنعوا أنفسكم من دخول النار وهذا وعيدٌ من الله، لقد أعطاهم ذاتية الاختيار في الدنيا ولم يختاروا قهراً، بل اختاروا عدم الإيمان بمشيئة الاختيار التي أعطاه الله لهم. ولكن هناك وقت ليس فيه اختيار وهو الآخرة، فحاولوا أن تتقوا في الآخرة عذابَ النار يوم القيامة، ولكن لن يكون لأحد اختيار.

فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يقول في ذلك اليوم: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

ويقول جلّ جلاله: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩].

فإرادتكم التي منعتكم من الإيمان.. لن تقيكم يومئذٍ من عذاب النار، واقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

لماذا هم وما يعبدون؟ لأن العابد يرتجي نفع المعبود. فكأنهما عندما يرى كلٌّ منهم الآخر في العذاب تكون الحسرةُ أشدّ؛ ولذلك فإن الحجارة والأصنام التي يعبدونها ستكون معهم في النار يوم القيامة، وليس هذا عقاباً للأحجار والأصنام؛ لأنها خَلْق مقهور لله مُسبِّح له، ولكن هذه الأصنام والأحجار تكون راضية وهي تحرق الذين كفروا بالله. وتقول:

عَبدُونَا وَنحنُ أعبدُ للهِ مِنَ المستغفرينَ بالأَسْحَارِ

وقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤] الله ـ سبحانه وتعالى ـ يخبرهم وهم في الدنيا أن النار أُعِدّت للكافرين. وقوله تعالى عن النار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ تطمين غاية الاطمئنان للمؤمن، وإرهاب غاية الإرهاب للكافر... وقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ﴾ معناها أنها موجودة فعلاً، وإنْ لم نَكُنْ نراها. وأنها مخلوقة، وإنْ كانت محجوبة عنا.

ورسول الله ﷺ قال: «عُرِضَتْ عَليَّ الجنةُ، ولو شئتُ أنْ آتيكم منها بقِطاف لفعلت». وهذا دليل على أنها موجودة فعلاً، والمؤمن حينما يعلم أن الجنة موجودةٌ فعلاً، وأن الإيمان سيقوده إليها، فإنه يُحسُّ بالسعادة ويشتاق للجنة. فإذا سمع قول الحق ـ سبحانه وتعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠، ١١].

ساعة تقرأ هذه الآية الكريمة تعرف أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ سيجعلك في الجنة تأخذ ما كان لغيرك؛ لأن الميراث يأتيك من غيرك، وقد سبق علم الله سبحانه وتعالى خَلْقَ الناس جميعاً.

وقبل أن يخلق أعدّ لكل واحد من خَلْقه مقعداً في النار ومقعداً في الجنة، فالذين سيدخلون النار خالدين فيها، مقاعدهم في الجنة ستكون خالية، فيأتي الله ـ سبحانه وتعالى ـ فيعطيها للمؤمنين ليرثوها فوق مقاعدهم ومنازلهم في الجنة، والحق سبحانه عندما يقول: ﴿أُعِدَّتْ﴾ فهي موجودة فعلاً.

علامات الساعة الصغرى والكبرى

من الحكمة والمنطق قبل أن أتكلمَ عن مراحل الساعة أنْ أتحدث عن علامات الساعة الصغرى والكبرى، بين يدي الساعة، ولا بد أنْ يُوقِنَ المسلمُ أن الساعة آتية لا ريبَ فيها، وتتعدَّد العلامات وتتنوع:

أولاً: العلامات الصغرى التي وقعت وانقضت.

ثانياً: العلامات الصغرى التي وقعت ولم تنقض.

ثالثاً: العلامات الصغرى التي لم تقع بعد.

إن الحديث عن اليوم الآخر ليس من باب الترف العلمي أو الذهني، ولا من باب الثقافة الذهنية الباردة التي لا تتعامل إلاَّ مع العقول فحسب، بل إن الإيمان باليوم الآخر ركنٌ من أركان الإيمان باللّه جلَّ وعلا، لا يصح إيمانُ العبد إلا به أصلاً وابتداءً، كما في صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب، وفيه أن جبريل عليه السلام سأل الحبيب المصطفى ﷺ: ما الإيمان؟ فقال الحبيب ﷺ:

«الإيمان أنْ تؤمن باللّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأن تؤمن بالقدر خيره وشره».

فلا يستقر الإيمانُ باليوم الآخر في قلب عبد من العباد إلا إذا وقف على حقيقة هذا اليوم، وعرف أحواله وكُروبه وأهواله، فإذا استقرت حقيقةُ الإيمان باليوم الآخر في قلب عبد صادق، دفعه هذا العلم بهذا اليوم إلى الاستقامة على منهج اللّه، وعلى طريق الحبيب رسول اللّه ﷺ، لأنه سيعلم يقيناً أنه غداً سيقف بين يدي اللّه جلَّ وعَلاَ، ليكلمه ربه، ليس بينه وبينه ترجمان، ليقول له الملك: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].

قال اللّه جلَّ وعلا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج: ٦، ٧].

وإذا كان البشر يرونَ الساعة بعيدة، فإن خالقَ البشر يرى الساعة قريبة، قال جلَّ وعلا: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا * يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ * وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج: ٦ـ ١٠].

وقال سبحانه: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ [القمر: ١].

وقال جلّ وعلا: ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ١].

وقال سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحشر: ١٨].

أما عن وقت قيام الساعة، فإن هذا يختص بعلمه الحق سبحانه وتعالى، فلا يعلم وقت قيام الساعة مَلَكٌ مُقَرَّب أو نبيٌّ مُرْسَل.

قال سبحانه في سورة الأعراف: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وقال سبحانه في سورة الأحزاب: ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٦٣].

وقال سبحانه في سورة النازعات: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۝ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ۝ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ۝ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ [النازعات: ٤٢ ـ ٤٦].

فلا يعلم وقت قيام الساعة إلا الله، فجبريل عليه السلام هو أعلى الملائكة، ومحمد ﷺ هو أعلى الخلق منزلة، مع ذلك جاء جبريل إلى النبي ﷺ سائلاً: متى الساعة؟ فقال المصطفى ﷺ: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل!! وهو جبريل، والمسؤول هو البشير النذير، لا يعلمان وقت قيام الساعة... أفيتجرأ عاقل بعد ذلك ليقول بأنه على علم بوقت قيام الساعة.

في صحيح البخاري من حديث ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «مفاتح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله، وتلا النبي ﷺ قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: ٣٤].

وإذا كان الله عزّ وجلّ قد أخفى وقت قيام الساعة، فقد أخبر ـ سبحانه وتعالى ـ ببعض العلامات والأمارات التي تكون بين يدي الساعة، لينتبه الخلق بالإنابة والتوبة إلى الله جلّ وعلا، وقد سمى القرآنُ هذه العلامات والأمارات بالأشراط، فقال سبحانه: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴾ [محمد: ١٨].

أي: فقد جاءتْ علاماتها وأماراتها، وهذه العلامات تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

أولاً: علامات صغرى وقعت وانتهت.

ثانياً: علامات صغرى وقعت ولم تنقضِ وما زالت مستمرة.

ثالثاً: علامات صغرى لم تقع بعد.

أما العلامات الصغرى التي وقعت وانتهت، فأولها بعثة الحبيب المصطفى ﷺ، ففي الصحيحين أنه ﷺ قال: "بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتين، وأشار بالسبابة والوسطى"، فبعثة النبي ﷺ علامةٌ صغرى، وموت النبي ﷺ أيضاً، وكلاهما مَضَيَا، كما في صحيح البخاري من حديث عوف بن مالك قال: "اعْدُدْ ستاً بين يدي الساعة . . ." وذكر النبي ﷺ أولها موته ﷺ.

ومن هذه العلامات الصغرى أيضاً التي وقعتْ وانقضتْ **انشقاق القمر**، قال الحق سبحانه: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١]، وقد وردت الأحاديث الكثيرة الصحيحة عن رسول الله ﷺ، رواها الإمام مسلم في صحيحه، منها حديث أنس رضي الله عنه قال: طلب أهل مكة من رسول الله ﷺ أن يُرِيَهُمْ آيةً، فأراهم انشقاق القمر. فقال: "ماذا تريدون؟". قالوا: نريد أن تشقَّ لنا القمر في السماء نصفين.

فسأل الحبيب ﷺ ربه، فاستجاب الله للمصطفى ﷺ، وشقَّ له القمر في السماء نصفين، فقال المصطفى ﷺ: "اشهدوا . . . اشهدوا". ومع ذلك أنكروا وأعرضوا، وقالوا: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ٢].

ومن هذه العلامات الصغرى أيضاً خروجُ نار في أرض الحجاز، روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تقوم الساعةُ حتى تخرجَ نارٌ من أرض الحجاز تُضيء أعناقَ الإبل ببُصْرَى".

وبُصْرَى بلد تسمى حُوران في ديار الشام، ولقد وقعتْ هذه الآيةُ بمثل ما حَدَّث الصادقُ المصدوقُ الذي لا ينطق عن الهوى. قال الإمام القرطبي في التذكرة: ولقد وقعت هذه الآية بمثل ما حدَّث الصادق المصدوق ﷺ، ففي يوم الأربعاء في الثالث من شهر جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة خرجتْ نارٌ من أرض الحجاز، كانت لا تمر على جبل إلا ذكَّته وأذابته، رآها من أرض الحجاز جميع أهل الشام.

أما العلامات الصغرى التي وقعتْ وما زالت مستمرة لم تَنْقَضِ بَعْد، فقد جاء في صحيح مسلم من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: "قام فينا

رسولُ الله ﷺ مقاماً ما ترك شيئاً يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حَدَّث به، حفظه مَنْ حفظه، ونسيه مَنْ نسيه».

وقد أخبر النبي ﷺ بالفتن التي ستقع، وقال ـ كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة: «بادروا بالأعمال فتناً كقِطَع الليل المظلم، يصبح الرجلُ مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعَرَض من الدنيا».

فهي فتن كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل على الإيمان، فلا يأتي الليل عليه إلا وقد كفر بالرحيم الرحمن! ويمسي على الإيمان، فلا يأتي الصباح عليه إلا وقد كفر بالله عزّ وجلّ!!.

ومن الفتن التي يتعرض لها المسلم اليوم فتنة الغربة: فالمسلم الصادق يعيش الآن فتنة قاسية، ألا وهي فتنة الغربة، قال الحبيب ﷺ كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء».

فأهل الغربة الآن يفرون بدينهم من الفتن، بل لقد روى الترمذي في سننه أن النبي ﷺ قال: «سيأتي على الناس زمانٌ، القابضُ فيه على دينه كالقابض على جمر بين يديه».

ومن الفتن التي يتعرض لها المسلمُ فتنة الشهوات: ففي الصحيحين من حديث المسور بن مخرمة أنه ﷺ قال: قال المصطفى ﷺ: «فوالله، ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أنْ تُبْسطَ عليكم الدنيا، فتنافسوها كما تنافس فيها مَنْ كان قبلكم، فتهلككم كما أهلكتهم».

إذ يرى المسلم واقعَ أمته مرّاً أليماً في الوقت الذي يرى فيه أممَ الكفر ودول الكفر قد قفزت قفزات سريعة جداً في عالم الحضارة والرقي والتطور والمدنية. فينظر المسلم الشاب الغيور إلى واقع الأمة، فيرى الأمةَ ذليلةً كسيرة مبعثرة كالغنم في الليلة الشاتية الممطرة، وتعصف الفتنةُ بقلبه.

ويتساءل مع نفسه: أهذه هي الأمة التي دستورها هو القرآن ونبيّها محمد عليه الصلاة والسلام، وربها هو الرحيم الرحمن، ما الذي بدَّلَ عزّها إلى ذُلّ؟! ما الذي غيّر علمها إلى جهل؟! ما الذي حوّل قوتها إلى ضعف وهوان؟!.

وهناك فتنة الأولاد، وفتنة الزوجات، قال جلّ وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤].

وقد أخبر رسول الله ﷺ عن فتن كثيرة، هي من أشراط الساعة وعلاماتها، قال المصطفى ﷺ، كما في الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه، «إن من أشراط الساعة أنْ يُرْفَعَ العلمُ، ويظهرَ الجهلُ، ويكثرَ الزِّنا، ويكثرَ شُرْبُ الخمر، ويَقلَّ الرجالُ، وتكثرَ النساءُ، حتى يكونَ لخمسين امرأة القَيِّم الواحد».

بل لقد ورد في سنن الترمذي أن النبي ﷺ قال: «يتقارب الزمانُ بين يَدَي الساعة، فتكون السنة كالشهر، ويكون الشهر كالجمعة، وتكون الجمعة كاليوم، ويكون اليومُ كاحتراق السعفة». أي: احتراق جريدة من النخيل.

ومن علامات الساعة الصغرى التي وقعت ولم تنقض **إسناد الأمر إلى غير أهله**. ففي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة: أن أعرابياً دخل على النبي ﷺ وهو يُحَدِّثُ الناس، فقال الأعرابي: يا رسول الله، متى الساعة؟ فمضى النبي ﷺ في حديثه، ولم يُجِب الأعرابيَّ عن سؤاله، فلما أنهى النبي ﷺ حديثه قال: «أين السائل عن الساعة آنفاً؟». فقال الأعرابي: ها أنذا يا رسول الله. قال: «إذا ضُيِّعَتِ الأمانةُ فانتظر الساعة»، فقال الأعرابي الفقيه: وكيف إضاعتها يا رسول الله؟ قال: «إذا وُسِّدَ الأمرُ إلى غير أهله، فانتظر الساعة».

تدبر معي حديث النبي ﷺ من حديث أبي هريرة قال ﷺ: «سيأتي على الناس سنواتٌ خَدّاعاتٌ، يُصَدَّقُ فيها الكاذبُ، ويُكَذَّبُ فيها الصادق، ويُؤْتَمَنُ فيها الخائنُ، ويُخَوَّنُ فيها الأمينُ، وينطق فيها الرُّوَيبضة». . . قيل: مَن الرُّوَيبضة. . يا رسولَ الله؟ قال: «الرَّجل التافه يتكلم في أمر العامة».

ومن تلك العلامات التي جعلها الحق سبحانه من أشراط الساعة المتحققة الآن تداعي الأمم على أمة الحبيب المحبوب ﷺ، ففي الحديث الذي رواه أبو داود من حديث ثوبان أنه ﷺ قال: «يوشك أنْ تَدَاعَى عليكم الأممُ كما تَدَاعَى الأَكَلَةُ إلى قَصْعَتِهَا».

قالوا: أو من قِلَّة نحن يومئذٍ يا رسول الله؟

قال ﷺ: «كلا. . . ولكنكم يومئذٍ كثير، ولكن غُثاءٌ كَغُثاءِ السَّيْلِ، ولَيُوشِكَنَّ اللهُ أنْ ينزعَ المهابةَ من قلوب عدوِّكم، ولَيَقْذِفَنَّ في قُلُوبِكُمُ الوَهْن».

قيل: وما الوهنُ يا رسولَ الله؟ قال: «حبُّ الدنيا، وكراهية الموت».

وهذا واقع نعيش فيه. . واقع تحياه الأمة، فقد تداعت أذلُّ أمم الأرض من

اليهود، ومن عُبَّاد البقر، والملحدين على أمة الإسلام في كل مكان، وطمع في الأمة الذليلُ قبل العزيز، والضعيفُ قبل القوي، والقاصي قبل الداني، وأصبحت الأمةُ قصعةً مستباحةً لأمم الأرض.

ومن علامات الساعة وأشراطها أيضاً ما رواه أبو أمامة رضي اللّه عنه قال: «بين يدي الساعة رجالٌ معهم سياط، كأنها أذنابُ البقر يَغْدُونَ في سَخَط اللّه، ويروحون في غضب اللّه».

ومن حديث أبي هريرة، قال المصطفى ﷺ: «صنفان من أهل النار لم أرَهُمَا: رجالٌ معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناسَ، ونساءٌ كاسياتٌ عارياتٌ مميلاتٌ مائلاتٌ، رؤوسهن كأسنمة البُخت المائلة، لا يدخلْنَ الجنة، ولا يجدْن ريحها، وإنَّ ريحها لَيُوجَد من مسيرة كذا وكذا».

علامات صُغْرَى لم تقع بعد:

من هذه العلامات التي أخبر عنها النبي ﷺ ولم تقع، **كثرة المال والثروة** في أيدي الناس، حتى أنهم لا يجدون فقيراً يستحق الزكاة، وقد روى البخاري ومسلم أنه ﷺ قال: «لا تقوم الساعةُ حتى يكثرَ المالُ ويفيضَ، حتى يُخْرِجَ الرجلُ زكاةَ ماله فلا يجد أحداً يقبلها».

ومن أهل العلم من قال: إن هذا قد وقع على عهد عمر بن عبد العزيز رضي اللّه عنه.

ومن العلامات التي لم تظهر **انحسار الفرات عن جبل من ذهب**، وهو ما أخبر عنه الصادق المصدوق، من حديث أبي هريرة رضي اللّه عنه قال: قال النبي ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى ينحسر الفراتُ عن جبل من ذهب، يقتتل الناسُ عليه فيُقتل من كل مائة تسعة وتسعون، فيقول كل رجل منهم: لَعَلِّي أكون أنا الذي أنجو».

وفي رواية قال ﷺ: «يوشك الفرات أنْ يُحْسرَ عن كنز من ذهب، فمَنْ حضره فلا يأخذ منه شيئاً».

ومن العلامات أيضاً التي لم تظهر بعد: **ظهور المهدي رضي اللّه عنه**، فعن عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «لو لم يَبْقَ من الدنيا إلا يومٌ واحدٌ لَطوّل اللّهُ ذلك اليوم، حتى يبعث اللّهُ فيه رجلاً مِنّي - أو من أهل بيتي - يُواطىء اسمه اسمي، واسم أبيه اسم أبي، يملأ الأرضَ قسطاً وعدلاً، كما مُلِئَتْ ظلماً وجَوْراً».

يخرج هذا الرجل، يؤيد اللهُ به الدينَ، يملك سبعَ سنين، يملأ الأرضَ عدلاً كما مُلئَتْ جَوْراً وظلماً، تنعم الأمةُ في عهده نعمة لم تنعمها قطّ، تُخْرج الأرضُ نباتها، وتُمطر السماءُ قَطْرَها، ويعطى المال بغير عدد.

قال ابن كثير: في زمانه تكون الثمارُ كثيرة، والزروعُ غزيرة، والمالُ وافراً، والسلطانُ قاهراً، والدينُ قائماً، والعدد راغماً، والخيرُ في أيامه دائماً.

علامات الساعة الكبرى

والآن حديثنا عن العلامات الكبرى التي ستقع قبل قيام الساعة مباشرة.

وقد ذكر النبي ﷺ هذه العلامات في حديثه الصحيح الذي رواه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة من حديث حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه قال: اطلع علينا النبي ﷺ ونحن نتذاكر، فقال: «ما تذاكرون؟» قلنا: نذكر الساعة. قال: «إنها لن تقوم حتى ترَوْا قبلها عشر آيات، فذكر: الدخان، والدجّال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخرُ ذلك نارٌ تخرج من اليمن تطرد الناس إلى مَحْشَرهم».

وستقع العلامات الكبرى متتابعة، فهي كحبّات العِقْد، إذا انفرطت منه حبةٌ تتابعتْ بقية الحبات، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «الأمارات (أي: العلامات الكبرى) خرزات منظومات في سلك، فإنْ يقطع السلك يتبع بعضها بعضاً».

فتنة الدجّال أعظم فتنة على الأرض:

والآية العظيمة الأولى التي تُؤذِنُ بتغيُّر الأحوال على الأرض، هو خروج المسيح الدجّال، فهو أعظم فتنة على وجه الأرض، من يوم أنْ خلق اللهُ آدم إلى قيام الساعة.

وقد يسأل البعض: لماذا سُمّيَ الدجّالُ بالمسيح الدجّال؟ فالجواب أنه سُمّيَ بهذا، لأن عينه ممسوحة، قال المصطفى ﷺ: «الدجّال ممسوح العين»، وسُمّيَ بالدجّال لأنه يغطي الحقَّ بالكذب والباطل، فهذا دجل، فسمي بالدجّال.

وفتنة الدجّال فتنة عظيمة، ففي صحيح مسلم من حديث عمران بن حصين وأمرُ الدجّال أمرٌ غيبي، والأمر الغيبي لا يجوز أنْ نتكلم فيه بشيء من عند أنفسنا، إنما ننقل عن الصادق المصدوق ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وَحْيٌ يُوحَى.

وقد روى أبو أمامة الباهلي أن النبي ﷺ قال: «إنها لم تكُنْ فتنةٌ على وجه الأرض منذ ذرأ الله ذرية آدم أعظم من فتنة المسيح الدجّال، ولم يبعث الله نبياً إلا وقد أنذر قومه الدجّالَ، وأنا آخرُ الأنبياء، وأنتم آخرُ الأمم، وهو خارج فيكم لا محالةَ، فإنْ يخرج الدجّالُ وأنا بين أظْهُرِكُم فأنا حجيجٌ لكل مسلم، وإنْ يخرجِ الدجّالُ من بعدي، فكل امرئ حجيجُ نفسه، والله خليفتي على كل مسلم».

الوَصْفُ الدَّقيق للدَّجّال:

ولقد وصف النبي ﷺ الدجّالَ وصفاً دقيقاً محكماً، وبَيَّنَ لنا فتنته بياناً شافياً حتى لا يغتر بالدجّال أحدٌ من الموحّدين بالله رب العالمين، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قام رسول الله ﷺ في الناس خطيباً: فحمد الله، وأثنى على الله بما هو أهله. . . . فذكر الدجّال فقال: «إني لأُنذركمُوهُ، وما من نبي إلا وقد أنذر قومَه الدجّال، ولقد أنذرَ نوحٌ قومه، ولكن سأقول لكم فيه قولاً لم يَقُلْهُ نبي لقومه، ألَا فاعلموا أنه أعورُ، وأن اللّهَ ليس بأعور».

وقد جَلَّ ربنا عن الشبيه. . وعن النظير. . وعن المثيل. . لا كُفْءَ له، ولا ضدَّ له، ولا ندَّ له، ولا شبيهَ له، ولا زوجَ له، ولا ولدَ له:

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

ثم قال المصطفى ﷺ: «الدجّال ممسوحُ العين، مكتوبٌ بين عينيه كافر، يقرؤه كل مسلم». . وفي رواية حذيفة في صحيح مسلم قال ﷺ: «الدجّال، مكتوبٌ بين عينيه كافر، يقرؤه كل مؤمن، كاتب أو غير كاتب».

لا ينبغي أن نصرفَ لفظ النبي ﷺ على غير ظاهره، الكتابة على جبين الدجّال كتابة حقيقية، لدرجة أنه وردت في رواية في صحيح مسلم قال ﷺ: «الدجّال ممسوحُ العين، مكتوبٌ بين عينيه (ك ف ر) أي كافر». وهو وصف عجيب للدجّال من رسول الله ﷺ.

وقد قال الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ: «لأنا أعلمُ بما مع الدجّال من الدجّال، معه نهران يجريان: أحدهما رأيَ العين ماءٌ أبيض، والآخر رأيَ العين نارٌ تأجّج، فإمّا أدركنّ أحدٌ فلْيأتِ النهرَ الذي يراه ناراً، وليغمض، ثم ليُطأطِئ رأسه فلْيشربْ منه، فإنه ماءٌ باردٌ».

فلا تخشَ نار الدجّال، فهو دجّال يغطي الحق بالكذب والباطل، إنْ رأيتَ ناره فاعلم أنها ماءٌ عَذْبٌ باردٌ طَيِّب، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «يخرج الدجّال

وإنَّ معه ماءً وناراً، فما يراه الناسُ ماءً فهي نارٌ تحرق، وما يراه الناسُ ناراً فهو ماء باردٌ عَذْبٌ ».

مدة مكوث الدجّال في الأرض:

وقد سأل الصحابةُ رسول الله ﷺ عن المدة التي سيمكثُها الدَّجّال في الأرض، فقال الحبيب ﷺ: «أربعون يوماً، يومٌ كسنة، ويومٌ كشهر، ويومٌ كجمعة، وسائرُ أيامه كسائر أيامكم». قلنا: يا رسولَ الله، اليوم الذي كسنة تكفينا فيه صلاةُ يوم وليلة؟ قال: «لا، اقدروا له قدره»، يعني: صَلُّوا الفجر وعدوا الساعات التي كانت قبل ذلك بين الفجر والظهر، وصَلُّوا الظهر، وعدوا الساعات التي كانت بين الظهر والعصر وهكذا.

فسأل الصحابةُ رسول الله ﷺ: وما سرعته في الأرض؟! قال: «يمكث في الأرض أربعينَ ليلةً، فيمر على الأرض كلها؟ سرعتُهُ كالغيث [أي: المطر] استدبرتْهُ الرِّيحُ». يعني: يمرُّ في كلِّ أرجاء وأنحاء الأرض.

ثم قال الحبيب ﷺ: «يأتي الدجّال على قوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون فيأمر السماءَ فتمطرُ، والأرضَ فتنبتُ، فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرًى، وأسبغه ضُروعاً، وأمدّه خَواصرَ».

ففتنة الدجّال فتنة رهيبة، تفتن ضعفاء الإيمان، فلو عقل هؤلاء لَعلموا أن صفات النقص من أعظم الأدلة على كفره وبطلان ادعاءاته، فالذي يستحق أن يُعبدَ هو المتصف بكلِّ صفات الكمال والإجلال.

ثم ينطلق الدجّال إلى قوم آخرين فيقول لهم: أنا ربكم. فيقولون: لا ويكذبونه. يقول المصطفى ﷺ: «ويمرُّ بالخربة، فيقول لها: أخرجي كنوزك، فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل، [أي: جماعات النحل]».

وممنْ يتعرَّضون لفتنة الدجّال ذلك الشاب الذي ملأ الإيمان قلبه، وأنار بصيرته، يقول النبي ﷺ: «ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً، فيضربه بالسيف، فيقطعه جَزْلَتَيْن، فيمشي الدجّال بين القطعتين أمام الناس، ويقول للشاب: قُمْ. فيستوي الشاب حَيّاً بين يديه». يخدع الناس بأنه قادر على كل شيء، مُوهماً إياهم أنه ربُّهم.

وفي رواية أبي سعيد الخدري في صحيح مسلم، يقول المصطفى ﷺ: «فيخرج إليه شابٌ فتلقاه المسالح، مسالح الدجّال [أي: أتباعه من اليهود الذين يحملون السلاح]، فيقولون له: أين تعمد؟ فيقول: إلى هذا الذي خرج [أي: إلى

الدجّال]، فيقولون له: أو لا تؤمن بربنا؟ فيقول: ما بربّنا خفاءٌ، أي: لو نظرتُ إلى الدَّجّال سأعرفه!

فيقولون: اقتلوه، فيقول بعضهم لبعض: أوَ ليس قد نهانا ربنا أن نقتل أحداً دونه، فينطلقون بهذا الرجل المؤمن إلى الدجّال، فإذا نظر المؤمن إليه قال: أيها الناس! هذا المسيح الدجّال الذي ذكره لنا رسول الله ﷺ، يقول المصطفى ﷺ: «فيأمر الدجّالُ به فَيُشْبَح، فيقول: خذوه وشُجُّوه، فَيُوسَع ظهرُهُ وبطنُهُ ضَرْباً، قال: فيقول: أَمَا تؤمن بي؟ فيقول: أنت المسيحُ الكذاب؟ قال: فَيُؤمَر به فَيُنشَر بالمنشار من مَفرِقِه حتى يُفرق بين رِجْلَيْه، قال: ثم يمشي الدجّالُ بين القطعتين، ثم يقول له: قُمْ، فيستوي قائماً، قال: ثم يقول له: أتؤمنُ بي؟ فيقول: ما ازددتُ فيك إلا بصيرةً؟ قال: ثم يقول: يا أيها الناس، إنه لا يفعل بعدي بأحد من الناس، قال: فيأخذه الدجّال ليذبحه فيجعل ما بين رقبته إلى ثَرْقوته نحاساً، فلا يستطيع إليه سبيلاً، قال: فيأخذ بيديه ورِجْلَيْه فيقذف به، فيحسب الناسُ أنما قذفه في النار، وإنما أُلقي في الجنة، فقال رسول الله ﷺ: «هذا أعظمُ الناس شهادةً عند رب العالمين».

ومما ورد عن هذه الفتنة العظيمة ما روته فاطمة بنت قيس الداري رضي الله عنها قالت: سمعتُ منادي الرسول ﷺ ينادي: «الصلاة جامعةٌ»، فخرجتُ إلى المسجد، فصليتُ مع النبي ﷺ، وكنتُ في النساء التي تلي ظهور القوم، فلما قضى الرسولُ ﷺ صلاته جلس على المنبر وهو يضحك فقال: «أيها الناسُ ليلزم كلُّ إنسان مُصَلاَّهُ»، ثم قال: «أتدرون لِمَ جمعتُكُم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم.

فقال رسول الله ﷺ: «أمَا إنّي والله ما جمعتُكُم لرغبة ولا لرهبة، ولكن جمعتُكم لأن تميماً الدّاريّ كان رجلاً نصرانياً، فجاء فبايع وأسلم، وحدّثني حديثاً وافق الذي كنتُ أحدثكم عن المسيح الدجّال، حدّثني أنه ركب في سفينة بحرية مع ثلاثين رجلاً من لخم وجذام [قبيلتان عربيتان مشهورتان]، فلعب بهم الموج شهراً في البحر ثم أرفؤوا إلى جزيرة في البحر حتى مغرب الشمس، فجلسوا في أقْرُب السفينة فدخلوا جزيرة، فلقيتهم دابةٌ أهلب كثير الشعر، لا يدرون ما قُبُله من دُبُره، فقالوا: ويلك، من أنتِ؟

قالت: أنا الجسّاسة، قالوا: وما الجسّاسة، قالت: أيها القوم، انطلقوا إلى هذا الرجل في الدّيْر، فإنه إلى خبركم بالأشواق، فلما سَمّتْ لنا رجلاً فَرِقْنا منها أن تكون شيطانة، فانطلقنا سراعاً حتى دخلنا الدّيْر، فإذا أعظمُ إنسان رأيناه قط خَلْقاً، وأشدّه وثاقاً، مجموعة يداه إلى عنقه، ما بين رُكْبتيه إلى كَعْبيه بالحديد، قلنا: ويلك

ما أنت؟ قال: قد قدرتم على خبري، فأخبروني: ما أنتم؟ قالوا: نحن أناسٌ من العرب، ركبنا في سفينة بحرية، فصادفنا البحر حين اغتلم، فلعب بنا الموج شهراً، ثم أرفأنا إلى جزيرتك هذه، فجلسنا في أقْرُبها، فدخلنا الجزيرة فلقيتنا دابة أهلبُ كثير الشعر، لا ندري ما قُبُله من دُبُره من كثرة الشعر. فقلنا: ويلك ما أنت؟ فقالت: أنا الجسّاسة، قلنا: وما الجساسة؟ قالت: اعمدوا إلى هذا الرجل الذي في الدير، فإنه إلى خبركم بالأشواق، فأقبلنا إليك سراعاً، وفزعنا منها، ولم نأمن أن تكونَ شيطانة.

فقال: أخبروني عن بيسان. قلنا: وعن أيّ شأنها تستخبر؟ قال: أسألكم عن نخلها، هل يثمر؟ قلنا له: نعم، قال: أما إنه يوشك أنْ لا يثمر، قال: أخبروني عن بحيرة طبرية، قلنا: عن أيّ شأنها تستخبر؟ قال: هل فيها ماء؟ قالوا: هي كثيرة الماء، قال: أما إنّ ماءها يوشك أنْ يذهب، قال: أخبروني عن عين زغر، قالوا: عن أيّ شأنها تستخبر؟ قال: هل في العين ماء؟ وهل يزرع أهلُها بماء العين؟ قلنا له: نعم، هي كثيرة الماء، وأهلها يزرعون من مائها.

قال: أخبروني عن نبيّ الأميين، ما فعل؟ قالوا: قد خرج من مكة ونزل يثرب، قال: أقاتله العربُ؟ قلنا: نعم، قال: كيف صنعَ بهم؟ فأخبرناه أنه قد ظهر على مَنْ يليه من العرب وأطاعوه، قال لهم: قد كان ذلك؟ قلنا: نعم. قال: أما إن ذاك خيرٌ لهم أنْ يطيعوه، وإني مخبركم عني، أنا المسيح، وإني أوشك أنْ يُؤذنَ لي في الخروج، فسأخرج فأسير في الأرض، فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة، غير مكة وطَيْبة فهما محرّمتان عليّ كلتاهما، كلما أردت أنْ أدخل واحدة، أو واحداً منهما، استقبلني مَلَك بيده السيف صَلْتاً يصدني عنها، وإن على كل نَقْب منها ملائكة يحرسونها».

قالت: قال رسول الله ﷺ: وطعن بمخصرته في المنبر «هذه طَيْبة.. هذه طَيْبة»، يعني: المدينة «ألا هل كنتُ حدثتكم عن ذلك؟»، فقال الناس: نعم، قال: «فإنه أعجبني حديث تميم؛ لأنه وافق الذي كنتُ حدثتكم عنه وعن المدينة ومكة، ألاَ إنه في بحر الشام أو بحر اليمن، لا بل من قِبَل المشرق، ما هو؟ من قبل المشرق ما هو؟ وأومأ بيده إلى المشرق»، قالت: فحفظتُ هذا من رسول الله ﷺ.

هل سَيقتل الدَّجّال؟! ومَن الذي سيقتله؟

عن أبي أمامة الباهلي أنه ﷺ قال: «بينما إمام المسلمين يُصلي بهم الصبح في بيت المقدس إذ نزل عيسى ابن مريم، فإذا نظر إليه إمام المسلمين عرفه،

فيتقهقر إمام المسلمين لنبي الله عيسى، ليصلّي بالمؤمنين من أتباع سيد النبيين محمد، فيأتي عيسى عليه السلام ويضع يده في كتف إمام المسلمين، ويقول: لا، بل تقدم أنت فصلّ، فالصلاة لك أقيمتْ، ويصلي نبي الله عيسى خلف إمام المسلمين لله ربِّ العالمين، فإذا ما أنهى إمامُ المسلمين، قام عيسى وقام خلفه المسلمون.

فإذا فتح عيسى بابَ بيت المقدس، رأى المسيح الدجّال، معه سبعون ألف يهودي معهم السلاح، فإذا نظر الدَّجّال إلى نبي الله عيسى، ذابَ كما يذوبُ الملح في الماء، ثم يهرب، فينطلق عيسى وراءه، فيمسك به عند باب لُدّ في فلسطين، فيقتله نبي الله عيسى، ويستريح الخَلْق من شر الدَّجّال».

نزول عيسى عليه السلام:

زعم اليهود عليهم لعائن الله المتتابعة أنهم قتلوا عيسى ابن مريم وصلبوه، وزعم النصارى أن عيسى صُلِبَ وقُتِلَ ودُفِنَ، وخرج من قبره بعد ثلاثة أيام، وصعد إلى السماء، وجلس عن يمين الرب أبيه، وهو ينتظر إلى يوم الخلاص ليقضي بين الأحياء والأموات!

يقول الحق سبحانه: ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ [الكهف: ٥].

فبيَّن اللهُ الحقَّ، وكذَّب اليهودَ والنصارى، فقال سبحانه: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ۝ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٥٧، ١٥٨].

قال أهل التفسير: إن الله عزّ وجلّ لما أراد أنْ يرفعَ نبيه عيسى إلى السماء بعد ما انطلق اليهود لقتله ألقى الله شبهَ عيسى على يهوذا الأسخريوطي الخائن الذي أخذ اليهودَ ليدُلَّهُم على مكان عيسى، فابتلاه الله، فألقى عليه شبهَ عيسى فأخذه اليهود فقتلوه وصلبوه، وهذا قول.

والقول الآخر: قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لما أراد الله أنْ يرفعَ عيسى خرج إلى بيت فيه اثنا عشر رجلاً من الحواريين، فقال نبي الله عيسى: إن منكم مَنْ سيكفر بي بعد أنْ آمن بي، ثم قال لهم: أيُّكُم يقبل أنْ يُلْقَى عليه شبهي ليُقتل مكاني، ليكون معي في درجتي في الجنة، فقام شاب أحدثُهُم سناً (أصغر الجالسين) فقال له: أنا، فقال: اجلس، فجلس، ثم أعاد عيسى القول مرة ثانية، فقام نفس الشاب، فقال له: اجلس فجلس، ثم أعاد عيسى قوله للمرة الثالثة فقام نفس

الشاب، فقال عيسى: هو أنت. فألقى الله على هذا الشاب شبه عيسى، ورفع الله عيسى إلى السماء».

وجاء الذين يطلبون عيسى لقتله، فأخذوا هذا الشاب، فقتلوه وصلبوه، فكفر بعض أتباع عيسى ممن آمنوا به، كما ذكر لهم قبل قليل.

ثم يُنزِلُ اللهُ عزَّ وجلَّ عيسى بعد ذلك لحكم عديدة، منها:

أن الله ـ تبارك وتعالى ـ سَيُنزل عيسى عليه السلام ليُكَذِّب اليهودَ الذين زعموا أنهم قتلوه، وليُكَذِّبَ النصارى الذين جهلوا هذه الحقيقة، وليُبيِّنَ للناس جميعاً أن محمداً ﷺ، وأن الموحدين معه من أمته أَوْلَى الناس بعيسى عليه السلام، لأنه سيحكم العالم كله بكتاب الله وبشريعة محمد رسول الله ﷺ.

سينزل عيسى عليه السلام ليموت في الأرض، فما قولك إذاً في قول الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [آل عمران: ٥٥].

والجواب كما قال جمهور المفسرين: أن الوفاة في الآية معناها الوفاة الصغرى، وهي النوم، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠].

وكما في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]. أي: في منامها، كما في قول رسول الله ﷺ: «إذا استيقظ من منامه قال: الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور».

﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ أي: ألقى اللهُ عليه سِنَةً من النوم، وهذه هي الوفاة الصغرى، ثم رفعه الله، ثم يُنزِلهُ اللهُ ـ تبارك وتعالى ـ في الوقت الذي يشاء.

وقد بَيَّنَ اللهُ ـ جلَّ وعلاَ ـ أنه رفع عيسى إليه، إلى يوم الوقت المعلوم الذي سينزل فيه إلى الأرض مرة أخرى، ليكون علامةً كبرى من العلامات الدالة على قيام الساعة، فقال الحق سبحانه في قرآنه:

﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ۝ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ۝ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [الزخرف: ٥٧ـ ٦١].

﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أي: أن نزول عيسى أمارةٌ وعلامةٌ على قيام الساعة، فإنْ نزل فهذه علامة كبرى تدلُّ على قُرْب قيام الساعة، وقال الحق سبحانه في الآية التي ذُكرتْ آنفاً:

﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٩]، أي: قبل موت عيسى عليه السلام.

وقد بيَّنتْ السُّنَّةُ الصحيحةُ المتواترةُ نزولَ عيسى عليه السلام إلى الأرض من السماء، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، لَيُوشكنَّ أنْ ينزلَ فيكم عيسى ابن مريم حَكَماً مُقْسطاً، فيكسر الصليبَ، ويقتلَ الخنزيرَ، ويضعَ الجزيةَ، ويفيضَ المالُ، حتى لا يقبله أحدٌ».

ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «ليس نبيٌّ بيني وبين عيسى ابن مريم، وإنه نازلٌ، فإذا رأيتموه فاعرفوه، إنه رجلٌ مربوعٌ، ليس بالطويل ولا بالقصير، ولا بالسمين ولا بالنحيف، مائلٌ إلى الحمرة والبياض، كأن رأسه يقطر ماءً من غير بَلَل».

وعن النواس بن سمعان أنه ﷺ قال: «ينزل عيسى عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين، واضعاً كَفَّيْه على أجنحة مَلَكيْن، إذا طأطأ رأسه قَطَر، وإذا رفع رأسه تنحدر منه جمان كحبّات اللؤلؤ، يتوجه نبيُّ الله عيسى من دمشق إلى بيت المقدس وقد أقيمت الصلاة».

فإذا رأى الإمامُ الفَطِنُ الذَّكيُّ اللبقُ نبيَّ الله عيسى عرفه وتقهقر للخلف ليتقدم نبيُّ الله عيسى، فيقول له نبيُّ الله: «لك أقيمتْ، فإنَّ بعضكم على بعض أمراءُ تكرمةُ الله لهذه الأمة، فيصلي نبيُّ الله عيسى خلف إمام المسلمين، فإذا انتهَوْا من الصلاة انطلق نبيُّ الله عيسى إلى باب بيت المقدس، وأمرهم أنْ يفتحوا البابَ، فإذا فتحوا البابَ رأوا الدجّالَ خلف الباب، ومعه سبعون ألفاً من اليهود بالسيوف، فإذا نظرَ الدجّالُ إلى نبيِّ الله عيسى ذابَ كما يذوبُ الملح في الماء، فيريد الدجّالُ أنْ يهربَ فيتبعه نبيُّ الله عيسى، ويدركه عند باب لُدّ مدينة معروفة الآن بفلسطين فيقتله، ويُريح الناس من شرّه».

ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه أن رسول الله ﷺ قال: «فيهلك في زمان عيسى المللُ كُلُّها إلا الإسلام، ويُهلك اللهُ المسيحَ الدَّجّالَ، وتنزل الأمَنَةُ في الأرض حتى ترعى الأسودُ مع الإبل، والنمورُ مع البقر، والذئابُ مع الغنم».

والحق سبحانه يقول: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩].

ورسول الله ﷺ جاء لتصفية الوضع الإيماني في الأرض.

إذن: الذين آمنوا أولاً مع آدم، أو مع الرسل.. الذين جاءوا بعده لمعالجة الداءات التي وقعت.. ثم الذين تسمَّوْا باليهود، والذين تسمَّوْا بالنصارى، والذين تسمَّوْا بالصابئة.. فالله ـ تبارك وتعالى ـ يريد أنْ يبلغهم: لقد انتهى كل هذا.. فَمَنْ آمن بمحمد ﷺ فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون.

فكأن رسالته ـ عليه الصلاة والسلام ـ جاءتْ لتصفية كل الأديان السابقة.. وكل إنسان في الكون مُطالَب بأنْ يؤمن بمحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقد دعي الناس كلهم إلى الإيمان برسالته.. ولو بقي إنسانٌ من عهد آدم أو من عهد إدريس أو من عهد نوح أو إبراهيم أو هود.. وأولئك الذين نُسبوا إلى اليهودية وإلى النصرانية وإلى الصابئة.

كلُّ هؤلاء مُطالبون بالإيمان بمحمد ﷺ والتصديق بدين الإسلام.. فالإسلام يمسح العقائد السابقة في الأرض.. ويجعلها مُرَكَّزَةً في دين واحد... الذين آمنوا بهذا الدين ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].. والذين لم يؤمنوا لهم خوفٌ وعليهم حزن.. وهذا إعلان بوحدة دين جديد.. ينتظم فيه كلُّ مَنْ في الأرض إلى أن تقوم الساعة.

أما أولئك الذين ظَلُّوا على ما هم عليه، ولم يؤمنوا بالدين الجديد، لا يفصل الله بينهم إلا يوم القيامة.. ولذلك فإن الآية التي تضمنتْ الحسابَ والفصلَ يوم القيامة.. جاء فيها كلُّ مَنْ لم يؤمن بدين محمد عليه الصلاة والسلام.. بما فيهم المجوس والذين أشركوا.

والحق ـ تبارك وتعالى ـ أراد أنْ يرفع الظنَّ عَمَّنْ تبع ديناً سبق الإسلام، وبقي عليه بعد الإسلام.. هو يظن أن هذا الدين نافعه.. نقول له: إن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ قد حسم هذه القضية في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقوله جلّ جلاله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩].

إذن: التصفية النهائية لموكب الإيمان والرسالات في الوجود حُسِمَتْ.. فالذي آمن بمحمد عليه الصلاة والسلام لا يخاف ولا يحزن يوم القيامة.. والذي لم يؤمن يقول الله تبارك وتعالى له: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الحج: ١٧].. إذن: الذين آمنوا هم الذين ورثوا الإيمان من عهد آدم.. والذين هادوا هم أتباعُ

موسى عليه السلام.. وجاء الاسم من قولهم: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، أي: عُدْنَا إليك.

والنصارى: جمع نصراني، وهم منسوبون إلى (الناصرة) البلدة التي وُلِدَ فيها عيسى عليه السلام.. أو من قول الحواريين: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢].

ترعى الأسود مع الإبل.. والنمور مع البقر.. والذئاب مع الغنم:

قال رسول الله ﷺ: «فيكون الذئبُ مع الغنم كأنه كلبها، ويمر الوليدُ على الأسد فلا يضرّه، وتمر الوليدةُ على الحيّة فلا تضرّها، رُفِعَ الظلمُ واستقرّ الأمنُ والأمانُ والرخاءُ، وزادتْ البركةُ حتى تنزلَ الأمنةُ في الأرض».

بل في رواية النواس بن سمعان قال ﷺ: «فيقال للأرض: أنبتي ثمرتك، ورُدّي بركتك، فيومئذٍ تأكل العصابةُ من الرمانة، ويستظلون بقحفها، ويبارك في الرِسْل [اللبن]، حتى أن اللقحة [الوليدة التي وضعتْ ولدها] من الإبل لَتَكْفي الفئامَ من الناس [الجماعة]، واللقحة من البقر لَتَكْفي القبيلةَ من الناس، واللقحة من الغنم لَتَكفي الفَخِذَ من الناس...».

وهكذا تعيش الأرض حالة لا نسيجَ لها في التاريخ كله، حتى قال المصطفى ﷺ: «طُوبى لعيش بعد المسيح، طوبى لعيش بعد المسيح، يُؤذَن للسماء في القَطْر، ويُؤذن للأرض في النبات، حتى إذا بذرتَ حَبَّكَ على الصَّفا لَنبتَ، ولا تَشَاحُنَ، ولا تحاسُدَ، ولا تَباغُضَ، حتى يمرّ الرجلُ على الأسد ولا يضرّه، ويطأ على الحية فلا تضرّه، ولا تشاحن ولا تحاسد ولا تباغض».

الفوائد التي تعود علينا من ذكر علامات الساعة

على أننا لا بدّ أن نتوقفَ لنعرفَ أن للساعة علامات، أنبأنا عنها رسولُ الله، وقد تحققتْ العلامات الصُغْرى التي أنبأنا عنها رسول الله ﷺ كلها.. أما العلامات الكبرى فهي لم تتحقق بعد.. بعض الناس هنا يتساءلون: إذا كان عِلْمُ موعد الساعة لا يفيدنا، فلماذا تحدّث رسولُ الله ﷺ عن علامات اقتراب الساعة؟

نقول: إن هذه الأحاديث لرسول الله ﷺ لا تعطينا موعد الساعة، فإنها لا تقول لنا: إنه إذا تحقق كذا وكذا فانتظر الساعة بعد مائة عام أو ألف عام.. ولكنها تذكرةٌ لأولئك الذين سَيعُمُّ الفسادُ بينهم كلما اقترب موعدُ الساعة.. تذكرةٌ لهم،

تطالبهم بأنْ يتنبهوا جيداً إلى أنَّ ما يحدث في الكون هو من قدرة الله سبحانه وتعالى وامتداد لرسالة رسول الله ﷺ.

حتى إذا قرأناها ورأيناها قد تحققتْ نقول: صدقَ رسولُ الله ﷺ.. ونتذكر المنهج الذي بعثَ به الله رسوله ﷺ.. فنسارع باتباع المنهج، وتكون علامات الساعة هذه تذكرةً لنا بصدق الرسالة التي بعث بها الرسول الكريم.. وتكون من المعجزات المستمرة لرسول الله ﷺ.

كلما تحققتْ نبوءةٌ للنبي ﷺ كانت بمثابة معجزة جديدة لنا، تُثبّتنا على الإيمان كما ثبّتت المعجزات التي حدثت في عهد الرسول ﷺ صحابةَ النبي على الإيمان. فكأن رسالةَ رسول الله ﷺ متجددة، وليست متجمدة بأشياء رواها تحدث الآن.. وأشياء رواها ستحدث في المستقبل.. كلما حدث شيء قلنا: هذا حقٌّ.. ورسول الله حقٌّ.. وكانت لفتةً إيمانية تعيد الناس إلى المنهج الذي تركوه بمرور الزمن.

إذن: العلامات الصغرى للقيامة فيها تثبيتٌ للإيمان.. وفيها إعجاز يُفيق الناس الذين غفلوا عن منهج الله.. ولكن ليس فيها ما يمكن منه أنْ نحدد موعد يوم القيامة.. ربما يكون الموعد قريباً.. ولكن القريبَ عند الله بعيدٌ عندنا، مصداقاً لقوله تعالى:

﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۝ وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٦، ٧].

إذن: فالقرب والبُعْد عند الله مختلفٌ عن مفهومنا.. الساعة قريبةٌ نعم بعد أنْ تحققتْ علاماتها الصغرى، ولكن كم عدد سنوات هذا القرب، لا أحد يدري!.

اختلال الموازين وانقلاب المبادىء من علامات الساعة الصغرى

لكن ما هي علاماتُ القيامة الصغرى التي تحققتْ.. في ملخصها، أو إذا أردنا أنْ نضعها في إطار عام.. هي اختلال الموازين وانقلاب المبادىء.. فبهذا الكون موازين أخلاقية كان من المفروض أن تحكم الحياة بين الناس.. وكانت هي الطريق السَّويّ الذي لا بدَّ أنْ يمضي بها هذا الكون ليصلح.. هذه الموازين والقيم الأخلاقية التي كانت سائدة، تختل وتهتز وتنقلب.. فيصبح ما هو مُسْتنكر واقعاً.. وما هو واقعٌ وحقيقةٌ مستنكراً.

وترى الشحَّ المُطاعَ بأن كلَّ إنسان لا يعطي ما عنده بل يبخل به.. وليس

الشُّح هنا شُح المال.. ولكنه شُحٌّ في كل شيء.. الصانع لا يعطي صنعته كلّ علمه وإتقانه.. والأستاذ لا يعطي تلاميذه كلّ ما يعلم، بل يعطيهم على قَدْر الأجر، فجزء في المدرسة، وجزء في الدرس الخصوصي، وجزء في الدرس الخاص جداً.

يبخل الناس بمالهم، فلا ينفقونه في سبيل الله، ولا يعطونه للفقير والمحتاج.. ويبخل العامل بعمله، فتجده يستطيع أنْ يعملَ ولكنه لا يعْمَل.. ويبخل الموظف بجهده فتجد أنه يستطيع أن ينتج، ولكنه لا ينتج.. وكل عمل يبخل العاملون فيه بجهدهم.

فهناك بُخْل من كلّ ذي قدرة بقدرته، وبُخْل من كلّ ذي علم بعلمه، وبُخْل من كلّ ذي جاه بجاهه. أي: أن الإنسان يكون في مجتمعه مسموعَ الكلمة مطاعَ الأمر، ولكنه يرفض أنْ يستخدمَ ما وهبه اللهُ له في مساعدة المحتاجين، أو إنصاف المظلومين، أو قضاء الحاجات.. وهو يستطيع أنْ يفعلَ ذلك بكلمة واحدة.

ولكن الإنسان يجد أنه يستطيع أنْ يرفعَ ظلماً يقع فلا يتحرك ليمحو هذا الظلم، ويجد أنه يستطيع أنْ يُقرَّ الحق بشهادة يقولها، ولكنه لا يذهب لأداء هذه الشهادة.

كلُّ إنسان يبخل بما عنده.. لتنحدر الإنسانيةُ بعد ذلك إلى أسفل السافلين، لأن كل جيل سيأخذ من علم الجيل الذي قبله القشورَ.. وبهذا تضمحل الحضارات جيلاً بعد جيل.. هذا هو معنى الشح المطاع.. ولعلنا نشهده الآن في الدنيا كلها.. ولعلَّنا نرى جميعاً أن كلّ جيل هو أقلُّ عطاءً من الجيل الذي قبله.. ويقلّ العطاء كلما مضتْ الأيام.

وهكذا نجد في كل أوجه الحياة شُحّاً مطاعاً يُنبئنا عن بداية انحدار الإنسانية للهاوية، بينما المجتمعات التي سبقتْ كانت قائمةً على العطاء بلا حدود، حتى أن الأنصارَ عرضوا على المهاجرين أنْ يتنازلوا لهم عن نصف أموالهم وزوجاتهم بلا مقابل.

العلامة الثانية لاختلال الميزان هي ضياع الحق.. أو كما يقول رسول الله ﷺ: «إعجاب كلّ ذي رأي برأيه». وإعجاب الناس بآرائهم هو بداية الخروج من الحق إلى هوى النفس، وكل واحد يقول: هذا رأيي ولا بد أنْ يُتبع، ويحاول بشتى الطرق أنْ يزينَ هذا الرأي ولو بالباطل.. وأنْ يجمعَ الأدلة عليه، ولو كذباً.

فإذا رأى الحقَّ فإنه ينسى أن الرجوعَ إلى الحق فضيلةٌ.. ويرفض أنْ يُهزمَ،

وأنْ يُؤخذَ بغير رأيه. . . فكأن الناس قد وضعوا أنفسهم فوق الحقّ. . بينما الحق هو الذي كان يجب أن يسودَ الجميع، وأنْ يخضع له الناسُ.

ولكن الدنيا كلها تتفنن في الخداع، وكل صاحب رأي يُحاول أن يحققَ غايته بأيّ طريق. . بالضلال والإضلال. . وهكذا يختل ميزان الدنيا لأنه مُقَام على الحق. . ويصبح الحق ضائعاً لا صاحب له. . لأن كلَّ صاحب رأي مُعْتَزٌّ برأيه، بصرف النظر عن الحق. . وهذا ما نجده الآن في الدنيا. . فالناس يحاولون أنْ يفعلوا أشياء تُخَلدَ أسماءهم. . أو ليقال إنها فعلتْ دون أنْ يكلف الإنسان نفسه أنْ يسألَ: أين الحق وأين الباطل من كل ما يجري؟

نأتي بعد ذلك إلى علامة أخرى من علامات اختلال الميزان، وهي إعطاء الشيء لغير أهله. . والدنيا كلها قائمة، والحياة كلها تقدمتْ بأنْ يُعْطَى الشيءُ لأهله. . فتُعطى قضايا العلم للعلماء. . وتُعطى قضايا الاختراعات للباحثين والمخترعين. . ويُعطى القضاءُ مثلاً لمن درسوا قوانين الله وشرعه. . ولكن العقل البشري عند اقتراب الساعة لا يُعطي الشيء لأهله.

فإذا بدأنا بالقضية الكبرى، وهي قضية خَلْق الحياة والكون، فالله سبحانه وتعالى هو الذي خلق. . وهو الذي أخبرنا بأنه خلق. . ولم يخبرنا أحد، ولا يجرؤ أحدٌ أنْ يدّعيَ أنه خلق الكون. . ومع ذلك يأتي بعض الناس ليقولوا: إن الكون خُلِقَ بالصدفة. . وأن هناك تفاعلات كذا وكذا هي التي فعلت كذا. . ونجد نظرية التطور تقول: إن الإنسان أصله قرد. . مع أن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الإنسان، وأخبرنا كيف خلقه.

ولكن في هذه القضية الكونية الكبرى يُنسب الشيءُ لغير أهله. . ويفتري الناس على الله ويغرُّهم ما كشف اللهُ لهم من قوانينَ وأسرار في الكون. . فيظنون أنهم قد أوجدوا هذه القوانين، وأنهم قد صنعوها بقدرتهم، وأنها تتصرف وفقَ إرادتهم، فتختل الموازين، ويعبد الإنسانُ نفسه.

فتأتي إرادة الله ـ سبحانه وتعالى ـ لتزيلَ هذا الزيفَ كله، ويُدْعَى الناسُ للحساب إلى الله. . فيرون أنهم كانوا عجزة لا يقدرون على شيء، وكانوا خاضعين لا يملكون شيئاً، ولكن اللهَ هو الذي أعطاهم من قدرته، ومنحهم من مُلْكه، فإذا بهم يقابلون ذلك بالكفر بدلاً من الشكر.

هذا هو المعنى الواسع لأن يُعْطَى الشيءُ لغير أهله. . أي: أنْ يحسبَ الإنسانُ أنه الأصيلُ في الكون، وأن كلَّ شيء خاضعٌ له، وينسى خالقه.

وكلما مَرَّ الزمنُ شهدنا ذلك يبرز على الساحة في العالم.. فنجد مَنْ يقول: انتهى عصرُ الدين، وبدأ عصرُ العلم.. كأنما الدينُ والعلمُ متعاندان، بينما الدينُ هو دينُ اللّه، والعلمُ هو علمُ اللّه.. وكلاهما مُثْبَتٌ للإيمان.

ونرى العالم كلما تقدمنا في الزمن يحسب أنه قد استطاع أنْ يسيطرَ على الأرض بالعلم، ويُخضعها لإرادته، ويتحكم فيها.. بينما العلم لم يخلق شيئاً، وإنما استخدم المادةَ التي خلقها اللّه، والعقلَ المسخَّر له من اللّه، واستخدم ما شاء اللّه من أسرار هذا الكون.

فالذي اخترع الصاروخَ مثلاً جاء بالمواد التي خلقها اللّه، وأوجدها في الأرض ليصنع منها بنية الصاروخ ووقوده.. فهو لم يخلق المادة التي صنع منها جسم الصاروخ، وإنما جاء بها من المتاجم التي أوجدها اللّهُ في الأرض. قد يكون قد طوَّرها وقوَّاها بمواد أخرى.. ولكنها كلها جاءت من خَلْق اللّه.. مما أودع اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ في كونه من نعم وكنوز.

وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

إسناد الأمر لغير أهله:

إذا أخذنا هذا الحديث بالمعنى الواسع، وهو أنْ يُعْطَى الشيءُ لغير أهله.. نجد أننا بدلاً من أنْ نعطيَ ما في الدنيا للّه ـ سبحانه وتعالى ـ الخالق والموجد.. نأتي لغير أهل هذا الأمر، وهو الإنسان، فننسبه إليه لغرور التقدُّم العلمي.. والإنسان غير أهل لذلك.. فهو لا يستطيع أنْ يُخْضعَ قانوناً واحداً من قوانين هذا الكون لإرادته.. ومع ذلك فهو يظن باطلاً على غير حقيقة أنه قادرٌ على هذا الكون.. وأنه هو الذي أخضع القوانينَ بالعلم والتكنولوجيا.. حينئذٍ يأتي أمرُ اللّه ليعلمَ الناس الحقيقةَ.

وإذا أخذنا هذا الحديث: "يعطى الشيء لغير أهله" بأنه سيكون هناك حكام وولاة يحاولون الإبقاء على حكمهم، بألاَّ يختاروا الناسَ لكفاءتهم، أو عملهم، أو خبرتهم، ولكنهم يختارونهم من المخلصين لهم بغير علم.. ومن الذين يُطيعونهم بالحقِّ والباطل، ويعطونهم ما هم ليسوا بأهل له.

وهو ما يُعَبَّر عنه في العصر الحديث بأهل الثقة وأهل الخبرة، وهم يعرفون مَنْ يصلح للعمل، ولكنه مُتمسك بالحقِّ فيُبعدونه عنه.. ويضعون فيه أولئك الذين لا يفقهون شيئاً.

وبهذا لا تُنْتَقى الخبرة السليمة في إدارة العمل، فيصبح الذين يعلمون لا يفعلون شيئاً، والذين لا يعلمون هم الذين يديرون حركة الحياة في الكون كله.

وما دامت المسألةُ أهلَ ثقة وأهلَ خبرة.. تكون حركة إشراف الناس على الحياة مُخْتلّة، فيختلّ الكونُ كله.. ورسول الله ﷺ يُنبهنا إلى ذلك في الحديث الشريف حين يقول: «مَنْ وَلي من أمر المسلمين شيئاً، فَوَلّى رجلاً، وهو يجد مَنْ هو أصلحُ منه، فقد خانَ اللّهَ ورسوله، وخانَ جماعةَ المسلمين».

ويقول ﷺ: «إذا رأيتم الناسَ أماتوا الصلاةَ، وأضاعوا الأمانةَ، وأكلوا الربا، واستحلوا الكذبَ، وباعوا الدينَ بالدنيا، فهذه من علامات الساعة».

والصلاة هي الصلةُ بين العبد وربه.. وكل أحكام الدين تُرفع ما عدا الصلاة لأنها الصلةُ بين العبد وربه.. فالحج لمن استطاع إليه سبيلاً، فمَنْ لم يستطع لأنه كان فقيراً يسقطُ عنه الحج.. ومَنْ لم يستطع لأنه مريضٌ بمرض مزمن لا يُشْفَى منه سقط عنه الحج.. والزكاة تسقط عَمَّنْ لا يملك إلا قُوتَهُ وقُوتَ عياله.. والصوم لمن كان في تمام صحته، ولم يكُنْ مسافراً.

ولكن الصلاة لا تسقط بالمرض، ولا تسقط بالفقر، ولا تسقط بالسفر، فالإنسان يصلي واقفاً، ويصلي قاعداً إذا كان لا يستطيع أن يقف، ويصلي في فراشه إذا كان لا يستطيع أن يغادر الفراش، ويصلي حتى ولو لم يكُنْ قادراً على أنْ يُحرّك يديه وقدميه.. فالصلاة هي أساسُ حياة المؤمن لا يتركها أبداً.

وقول رسول الله ﷺ: «أماتوا الصلاة»، أي: لم تَعُدْ موجودة في حياتهم، فالميت يخرج من الحياة الدنيا، وكذلك الصلاة تخرج من حياة الناس في آخر الزمان، والميت يصبح نَسْياً مَنْسياً، مصداقاً لقوله تعالى:

﴿ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ [مريم: ٢٣].

وهكذا تُنسى الصلاة في آخر الزمان، ويُؤذن الله أكبر، والناس لاهُونَ في أمور الدنيا فلا يقوم أحد إلى المسجد ليصلي، أو يقوم ليتوضأ ويصلي، بل عندما يؤذن المؤذنُ للصلاة يكون كأنه ينادي على مَوْتى، فلا يجيبه أحد.

ضياع الأمانة:

قول رسول الله ﷺ: «وأضاعوا الأمانة» معناه: أنهم أضاعوا منهج الله، لأن الأمانة هي المنهج الذي حمله الإنسان ليؤديه في الدنيا، مصداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

فكأن الناس في آخر الزمان يضيعون منهج الله، وكيف يضيعونه؟ إنه يكون في أيديهم ولكنهم لا يعملون به، وهكذا ضيّعوا على أنفسهم ثواب المنهج الذي لو عملوا به لحصلوا على خير الدنيا والآخرة.

فكأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد أعطاهم شيئاً ثميناً وهو منهج السماء، وهو القرآن الكريم فأضاعوه، أي: وضعوه في مكان بعيد عن حياتهم ولم يلتفتوا إليه، ولم يحاولوا أن يبحثوا عمّا فيه من كنوز ومن علم.. هذه واحدة.

والثانية أنهم أهملوا الأخذ به.. فبدلاً من أن يتبعوا التشريعات التي جاء بها الله ذهبوا ليُقننوا لأنفسهم، وكأنما قوانين البشر هي أعلى من قوانين الله، ولذلك ترك الإنسانُ المنهجَ الذي أعطاه الله إياه وانطلق يُشرّع لنفسه.. وسمعنا عن القانون الروماني، والقانون الفرنسي، والقانون الإنجليزي إلى آخر هذه القوانين.. كل قانون منها يتبع هوى النفس، وكل قانون منها وُضع ليميز طبقة عن طبقة، ويميز أفراداً عن أفراد.

ولذلك أعطى الله ـ سبحانه وتعالى ـ لخَلْقه القانون الذي فيه العدل بلا هوى، والحق بلا غرض، فأضاعوه وأخذوا يبحثون عن قوانين البشر.. يضعونها.. فإذا العيوب تظهر فيعدلون ويُبدلون فيها، حتى يصبح القانون غارقاً في التعديلات كالثوب المهلهل المُرقّع لا يصلح لشيء.

«وأضاعوا الأمانة» أي: جعلوا الدين في خدمة الدنيا، بينما الدين هو السيد، وكل ما في الدنيا يجب أن يخدمه، ففسروا دين الله بغير ما قاله، وأصدروا الفتاوى ليُحلوا ما حرّم الله، ويُحرموا ما أحله خدمةً لأمور دنياهم، وتقرباً منهم لذوي النفوذ، فأضاعوا عدل الدين، وأضاعوا حكمته، وأضاعوا كل شيء يمكن أن يعطي الإنسانَ الحياةَ الآمنة المستقرة.

إذا حدث هذا كله فاعلم أنه من علامات الساعة.

استحلال الكذب:

أما قول رسول الله ﷺ: «واستحلوا الكذب»، فمعنى ذلك أن الكذب قد أصبح حلالاً يتعامل به كل الناس، وأصبح مقبولاً في المجتمع، لا ينفر منه ولا يستنكره أحد.

والكذب هو انفصال الكلام عن الواقع. فأنت إذا قلتَ: محمد عندي ولم يكُنْ عندك فقد انفصل كلامك عن الواقع الحقيقي، ولذلك يقال: كذب.

واستحلال الكذب معناه أن القول قد انفصل عن الفعل في حياة المجتمع، فيصبح المجتمع، كلامه شيء وفعله شيء آخر، ويصبح كلام الناس غير أفعالهم، فما يقوله الناس شيء، وما يفعلونه شيء آخر تماماً.

تجد إنساناً يحدثك عن الأمانة، فإذا ائتمنته خانك، وإنسان يحدثك عن الذمة والشرف، فإذا فعل كان لا ذمة له، ولا شرفَ عنده.. وإنسان يحدثك عن المال الحرام حديثاً مستفيضاً، فإذا أتيحت له الفرصة مَدَّ يده إلى المال الحرام، وفي هذه الحالة ينفصل واقع الحياة عن أولئك الذين يعيشون فيها.

والإنسان لا يكذب إلا إذا كان يريد أن يُخفي خطيئة، فإذا رأى إنسانٌ امرأة معك وسألك عَمَّنْ معك، فإن كانت زوجتك فإنك تقول: زوجتي. أما إذا كانت زوجة غيرك، فإنك تحاول أن تخفي هذه الخطيئة بالكذب، وإذا كنت تحصي مالاً حلالاً، ودخل عليك إنسان وسألك عن هذ المال تقول بلا تردد ولا خوف: هو مالي. فإذا كان مالاً حراماً حاولتَ أن تكذب لتخفيَ هذه الخطيئة.

وهكذا نرى أن معنى أن يستحل الناسُ الكذبَ أن يكون المجتمع مليئاً بالخطايا، ولذلك يحاول الناس أن يكذبوا لتغطية خطاياهم، فإذا رأيتَ مجتمعاً يملؤه الكذب فاعلم أنه تملؤه الخطيئة.. وإذا رأيتَ مجتمعاً يعيش بالصدق فاعلم أنه مجتمع خطاياه قليلة. ومعنى قول رسول الله ﷺ: "واستحلوا الكذب" أي: أن مجتمعات آخر الزمان ستكون مليئةً بالخطايا التي يخجل منها الناسُ فيكذبون.

وقول رسول الله ﷺ: "واستخفوا بالدماء" أي: أن الناس أصبحوا يهدرون دمَ بعضهم البعض باستخفاف غريب، ودم الإنسان لا يُهدر إلا بحقه، ولكن في آخر الزمان يُستخف بالدماء، فيُقتل الأبرياء دون أن يفعلوا شيئاً، وتُهدم الأماكن فوق رءوس النساء والأطفال دون ذنب فعلوه.

وهذا ما يحدث الآن، فقد استخفَّ الناسُ بالدماء، فترى رجلاً مثلاً يدبر حادث نسف بسيارة ملغومة يُقتل فيها العشرات من الأبرياء باستخفاف غريب، دون أن يشعر بأيّ ذنب، وكذلك خطف الرهائن وقتلهم، ووضع المتفجرات في الأماكن المزدحمة، ونسف القطارات والسيارات، وما يحدث في الحروب من استخفاف بالأرواح الأبرياء، وقصف المدن بالقنابل والصواريخ.

كل هذا يحدث الآن باستخفاف غريب، ولا ضَميرَ يستيقظ، ولا إنسانَ يثور على قتل الأبرياء بلا حساب، وهذا هو الاستخفاف بالدماء.

ويقول رسول اللّه ﷺ: «أن يكون فاسقُ القوم كبيرهم»، فالمفروض أن الكبير ـ سناً كان أو مقاماً ـ هو الذي يحافظ على الخُلُق الكريم، وهو الذي ينهى وينهر كل مَنْ يخرج على السلوك القويم، أو يرتكب عملاً سيئاً، فإذا كان الفسق والفجر في الكبير، فمعناه أن الفاحشة تعمُّ الجميع، لأن الكبير هو القدوة، وهو المَثل.

علامات أخرى:

وأن يَعُقَّ الولدُ أباه، حتى أنه يصبح خيراً للأب أن يربي كلباً صغيراً من أن يربيَ ولده، لأن الكلب يُخلص لصاحبه، أما الابن فيكون غَيْظَ أبيه وأمه.

وهذا معناه انتشار عقوق الوالدين، وألاَّ يُوَقِّرَ الناسُ الكبير، ولا يرحموا الصغير، وأن يلبسوا جلود الضأن وقلوبهم قلوب الذئاب. أي: أنهم يتظاهرون بالمسالمة، بينما هم في داخلهم متوحشون، لا شفقةَ عندهم ولا رحمة.

«وأن يتعالى الحفاة العراة، رعاة الشاة في البنيان». أي: يصبح المالُ في يد مَن لا علمَ لهم، يملكون مال الدنيا، وليس عندهم علمٌ لكي يحسنوا استثماره.

ومن علامات الساعة التي أنبأنا بها رسول اللّه ﷺ نقص الكيل والميزان، ومعناهما أن يسود المجتمع أكْل حقوق الناس، فالكيل والميزان معناهما حقوق الناس. أي: أن حقوق الناس تضيع.

«وأن يقتل الرجل أباه». أي: تنقطع صلة الأرحام بين الناس.

«وأن يركن العلماء إلى الولاة». أي: يُخضع العلماءُ أحكامَ الدين للدنيا، يريدون بها مالاً أو وظيفة، فيُحلون الحرام ويحرمون الحلال.

«وأن يُؤخذ المالُ بغير حقه» فينتشر المال الحرام حتى تصبح الصفة الغالبة في المجتمع هي أن يحصل الناسُ على المال حراماً بدون عمل، فتكثر السرقة والرشوة والنصب والاختلاس، ويتحايل الناس بالمشروعات الوهمية، ليحصلوا على الأموال بالباطل.

ومن علامات الساعة التي رواها رسول اللّه ﷺ أن تُقطع الأرحام، وأن يشتكي ذو القرابة لقرابته، فلا يعود عليه ذلك بشيء رغم أنهم يستطيعون أن يفعلوا، وأن يعبد المال فيعصي الناسُ اللّهَ في سبيل الحصول على المال الحرام، وأن

تختلط الأمورُ بين الناس، فلا يعرف ما هو الحرام وما هو الحلال.

وأن يظهر البغي والحسد والشح، وأن يجهر الناس بالفحشاء كأن يرتكبَ رجل أو امرأة فاحشةً، ثم يأتي وسط أصدقائه ويجاهر بها وكأنه يتفاخر بمعصية الله.

وأن يأكل القوم بألسنتهم كما تأكل البقر. أي: يعيشون على النفاق والرياء والكذب ومديح الناس بالباطل ولا يعملون شيئاً.

«وأن يعز الله ثلاثاً: درهماً من حلال، وعملاً مستفاداً، وأخاً في الله». أي: يكون من العزيز والنادر أن يكسب الناسُ مالاً حلالاً، أو يستفيدوا من علم يُقال لهم فيتبعوه، أو يحب الرجلُ رجلاً في الله ولله.

ومن علامات الساعة التي أنبأنا عنها رسول الله ﷺ أن تنتشر الخرافات، فيصدق الناس التنجيم وقراءة الطالع بالنجوم، وأن يمرَّ الرجل على المسجد فلا يدخل في قلبه خشوع، ولا يركع ركعتين، وأن يكون السلطان والقوة للنساء فيحكمنَ الرجال، ويطيع الرجالُ النساءَ في كل الأمور.

وأن تكون قلوب المسلمين قلوبَ الأعاجم، وألسنتهم ألسنةَ العرب. أي: أنهم يتكلمون باللغة العربية، ولكن قلوبهم تهوى وتعشق كل ما هو أجنبي، فحياة الأجانب الأعاجم هي التي تستهويهم، وهي التي تعجبهم.

«وأن تُزخرف المساجدُ، وتُحلَّى المصاحف» أي: أن يكون الإيمان ظاهرياً فقط دون قلوب تخشع أو أفئدة تخضع. فبدلاً من أن يعمر المسلمون المساجد بالصلاة يصنعون فيها الزخرفة ويحلونها بالنقوش، وبدلاً من أن يقرأ المسلمون القرآن يحلون المصاحف بماء الذهب. أي: أن القلوب تكون خاوية خالية من الإيمان.

هذه بعضُ علامات الساعة الصغرى التي أخبر بها النبي ﷺ، وقد تحققت جميعاً، وما دامت تحققتْ فهي لا تختفي، وتزيد ولا تنقص حتى تقوم الساعة.